الصاعقة الرعدية

على السيرة الجعيطية

على العريبي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : الصاعقة الرعدية على السيرة الجعيطية

المــــــؤلف : علي العريبي

رقـم الإيداع :

الطبعة الأولى 2010



الإهداء

الإهداء

إلى المفكر العربي ...

الدكتور إبراهيم عوض ..

تحية وتقديراً وعرفاناً بالجميل.

ع. العريبي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

قبل نزول الصاعقة

كثر هذه الأيام ما يسمى بالمفكرين في البلدان العربية، وتطلق عادة على من له جرأة على المقدسات الدينية، وعلى هذه الزمرة التي تشكك الناس في عقيدتهم ودينهم، ويجدون ترحيبا في كل مكان، وتخصص لهم مواقع في الإنترنت، وتنشر بعض المواقع الحاقدة على الإسلام أفكارهم، وحتى كتبهم، وتستضيفهم الكليات والنوادي، وتنشر لهم المطابع كتاباتهم، وتروج هذه الكتابات بين القراء، وتعاد طبعات كتبهم بصورة تلفت النظر، ولا ننسى أن علب السجائر هي الأخرى تنتج منها المعامل في البلدان العربية مئات الأطنان ، ويقبل على شرائها ملايين الأشخاص، ومعامل الأشربة تنتج كل يوم ملايين القارورات، والناس يحتسونها بشراهة منقطعة النظير، ولا يفكرون في السموم والأمراض التي تنتابهم، وقس على ذلك هذه الكتب التي تحرض القوم على فساد العقيدة، ونبذ دينهم، ومحوه من الوجود، بدعوى إعادة النظر في التراث، ومراجعته.

وعجبي شديد أن ينال هؤلاء (المفكرون) الجوائز السنية، التي تصل إلى آلاف الدولارات بعملة العم سام، وهم الذين حملوا معاولهم وفؤوسهم لهدم الدين، ونزع القداسة عن القرآن، فهذا يقول إن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قلد النبي الفلاني وادعى النبوة، وأنه معجب بالنبي داود فقلده ليؤسس حكومة أو دولة كان يحلم بتكوينها جده، وهذا يقول : إن الرسول تعلم السريانية في مكة قبل أن يتصل بقساوسة سوريا ليأخذ عنهم الموروث المسيحي واليهودي ويعود إلى مكة، وهناك يدعي أنه نبي، هذا وأمثاله يجازى على تخريبه لعقيدة عامة المسلمين، وتدفع من جيوب هؤلاء المساكين الأموال جزاء هذا التخريب، فهل قرأ من يسند هذه الجوائز تلك الأفكار والآراء التي حبرها هؤلاء المفكرون (؟) عن الرسول والقرآن والإسلام عموما، ذكرنا هذا الصنيع بتلميذ ذكي جدا اعتبر أن الأستاذ يعطيه الدرجة دون أن يقرأ له ما كتب من واجبات، فقرر أن يحرر موضوعا حول مقابلة رياضية وقعت بين فريقه وبين فريق آخر، وترك سؤال الأستاذ جانبا، فما كان من الأستاذ إلا أن أعطاه درجة ممتازة، وتحقق التلميذ أن الأستاذ لا يقرأ إجابات تلامذته، والذين يسندون هذه الجوائز المالية إما إنهم لا يطلعون على ملفات المترشحين للجوائز من دعاة التخريب والتغريب، أو من أصدقاء أصحاب هؤلاء الكتاب.

والأغلب على الظن أن جهات أجنبية، وأقصد بالذات الولايات المتحدة الأمريكية، هي التي تتدخل لمنح هذا أو ذاك هذه الجوائز. ألم تفرض هذه الدولة المناهج الدراسية على بعض الدول العربية، وطالبت بحذف الكثير من المسائل الواردة في القرآن الكريم، بدعوى أنها تحرض على الكراهية والإرهاب؟ ومن شروط الدولة الصهيونية على السلطة الفلسطينية حذف الآيات القرآنية التي تحرض على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والوطن، كذلك عدم تدريس سير أبطال الإسلام مثل خالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم.

ولا ننسى دور القائمين على الإعلام في إعلاء شأن هؤلاء الكتاب، فهذا محمود القاعود (كاتب مصري) يعلن بأن القائمين على أمر الإعلام هم أفراد الطابور الخامس (ليس كلهم بالطبع) وعصابات اليسار البائد، والشيوعية الهالكة، ونفايات التيار العلماني اللاديني، الكاره للإسلام، والحاقد عليه، وهؤلاء متألبون على كل ما هو إسلامي النزعة قَصْدَ إطفاء نور الإسلام، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره، ولو كره الحاقدون.

هذه الجوائز لا تمنح لمن يدافع عن الإسلام أمام الهجمة الشرسة التي يواجهها هذه الأيام على أكثر من صعيد في الصحف، وعلى المواقع في الإنترنت، والأشرطة السينمائية وغيرها، ولا تعطى لمن يتصدى للتنصير بين المسلمين، ويكشف عن أساليب التبشير، وإنما تمنح لمن يشكك في الدين، ويبث الحيرة في عقائد المؤمنين، ويزرع الشكوك في تاريخ المسلمين، فهل تعطى الجائزة المالية للدكتور إبراهيم عوض الذي ألف مائة كتاب وعشرات المقالات والأبحاث في الرد على خصوم الإسلام، وإبطال مزاعمهم، وزيف أقوالهم في القرآن والنبي الكريم، ومن يدري فلعلنا نسمع في المستقبل أن جهة عربية ما كرمت ذلك الرسام الدنمركي صاحب الرسوم المسيئة للرسول، وقدمت له جائزة مالية معتبرة من يدري، فكل شيء ممكن في هذا الزمن العربي الردئ

رأينا ما يكتبه المستشرقون والقساوسة عن الإسلام، وقلنا : إنهم يجهلون ديننا، أو متعصبون لدينهم، وأن حروب الفرنجة، كما يسميها المؤرخون العرب، وتسمى اليوم عندنا وعندهم بالحروب الصليبية، لم يهدأ أوارها في نفوسهم، ثم تجاوزوا هذه المرحلة فلجؤوا لفن الرسم الساخر، ورسموا نبينا ﷺ في صور مزرية، كل هذا وقع، وقابلناه بشيء من اللامبالاة، فما لِجُرْحٍ بميّتٍ إيلام.

أما أن يرفع واحد من أبناء جلدتنا عقيرته، ويبث السم في كتاباته، فهذا مؤلم لنا، ويحز في نفوسنا كثيرا. رأينا أن الاستشراق قد انطفأ في الغرب، وجاء بعده بعض القساوسة المتعصبون، وما راعنا إلا والاستشراق قد حل بين ظَهْرَانَيْنا، والغريب في الأمر أنهم يكتبون بالطريقة نفسها، أي التي يكتب بها المستشرقون، الحافر على الحافر، نسخة مطابقة للأصل، لف ودوران، وإثارة الشبهات حول الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، تقرأ وتعيد القراءة وتتساءل بينك وبين نفسك: ماذا يريد أن يقول هؤلاء؟ فلا تفهم شيئا. انظروا إلى ما يقوله هاشم صالح هذا الذي ترجم لأستاذه، وولي نعمته أركون عشرة كتب، وأضاع من عمره ربع قرن عبثا وسبهللا:

«هناك خوف مرعب من أن تنكشف الحقائق الكبرى للتراث، إذا ما طبقنا عليه المنهج التاريخي، هناك خوف من أن نفقد الكثير من تصوراتنا الراسخة التي عشنا عليها منذ مئات السنين (مثال على ذلك يا سيد!). ولهذا السبب لوحق المفكرون في أوروبا، بل وتعرضوا أحيانا للتصفية الجسدية، عندما اقتربوا من منطقة الحقائق الساخنة للتراث المسيحي، لكن الأوروبيين لم يقلعوا حضاريا إلا بعد أن اقتربوا منها، وصَفَّوْا حساباتهم مع التركة الثقيلة للماضي (لا مقارنة بين التراثين المسيحي والإسلامي!). ولهذا السبب يلاحَق المثقفون في العالم العربي والإسلامي اليوم، فهناك يد خفية جماعية جبارة تريد أن تمنعهم من الاقتراب من تلك المنطقة المحرمة (لو ذكرت لنا مثالا على ذلك؟) فلنحاول إذن أن نقترب منها بهدوء، وعلى مراحل كما يفعل أركون، لنحاول أن نراعي الحساسية العامة للشعب، وأن نسير به وبأنفسنا شيئا فشيئا نحو نور الحقيقة.

خوف مرعب من أي شيء؟ وماذا يعني بالحقائق الكبرى للتراث؟ وما المقصود بالتصورات الراسخة التي عشنا عليها منذ مئات السنين؟ وهل يتفضل علينا، ويبين لنا ما المقصود بمنطقة الحقائق الساخنة؟ والمنطقة المحرمة والتركة الثقيلة للماضي؟ وما هو النور الذي سنصل إليه في آخر الأمر، بفضل كتب أركون التي يشيد بها؟ لم يكشف عن مراده من كل هذه العبارات التي تخفي، ولا شك، وراءها نية مبيتة ومغرضة، وهذه الشرذمة ممن يسمون بالمفكرين (؟) أسلوبهم وعباراتهم واحدة، كأنهم ينقلون عن بعضهم البعض.

وسنتناول واحدا ممن ينتمي إلى هؤلاء المفكرين (أو المكفرين لا يهم) كمثال وأنموذج ، لأنهم متفقون في المنهج والأهداف، وربما حتى في العبارات والألفاظ، وكلهم تلقى تعليمه في الغرب، ويريد أن يفرض علينا تلك الأطروحات الغربية التي تعلمها، وأصبحت عقيدة راسخة عنده، وأن نتصرف، خاصة مع ديننا، كما تصرف الغرب مع دين السيد المسيح عليه السلام، ويجمع بينهم حب الغرب والتقرب إليه، إن لم نقل التمسح بأذياله، ويعلنون له أنهم يفكرون ويكتبون كما يريد هو ويرغب ويشتهي، ويظهرون له أنهم لا يكرهون اليهود، ولم لا؟ فنحن أبناء عمومة، ولهم الحق في تكوين دولة في قلب العالم العربي، وأن تكون هذه الدولة في خاصرة هذه البلدان المتخلفة، والتي تصنف في قائمة شعوب الأرض في الدرجة الثامنة، بعد زنوج إفريقيا ومتوحشيها.

أقول : إنهم يتمسحون ويتملقون، ولم ألق هذا الكلام على عواهنه، فقد رأيت في إحدى الكليات العربية أستاذا يساعد مستشرقا على حمل محفظته وقبعته، ويهيء له الكرسي الذي سيجلس عليه، وأن أحدهم يتبجح أمام طلبته بأنه تلميذ المستشرق الفلاني، ولا يذكر اسمه مجردا، وإنما يضيف إلى لقبه أستاذي العزيز، والقرآن يقول في حق هذا، ومن كان على شاكلته: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 22]. ولكن القرآن لا يهمهم من قريب أو من بعيد.

وهذا الأستاذ العزيز هو الذي يرى بأن الوحي الذي يتلقاه محمد عليه الصلاة والسلام يجب أن يفسر بالرجوع إلى التحليل النفسي، أي أن الرسول يعتريه مرض عصبي، ويجب أن تعرض حالته على طبيب نفساني. بلاشير وغيره يقول: إن الرسول ﷺ كان يصاب بالصرع، ويهذي بكلام يقول عنه : إنه وحي، والمصروع يتخبط في أقواله وأفعاله، ويتفوه بسرعة بجمل غير مترابطة ومتلاحقة، وغير صحيحة، وبصوت عال، بحيث لا يتسنى للسامع فهمها،وقد ينطق بالألفاظ البذيئة والساقط من الكلام، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كلاما هو في المحل الأرفع من البلاغة والوضوح، هذا بالإضافة إلى المحتوى: إنْ في المجال التشريعي أو العَقَدِيّ أو العلمي أو الأخلاقي، فهل وجد المستشرقون خبرا ولو ضعيفا يشير، ولو من بعيد، إلى أن الرسول كان يتخبط في أقواله وأفعاله؟

هذا ما يريد أن يقوله بلاشير الذي أعمى الله بصره وبصيرته (كما يقول الدكتور إبراهيم عوض) في الكتاب الذي ألفه عن «مشكلة محمد» ﷺ، ومن يعمل لهذا الرجل حسابا، اللهم إلا من تبنى آراءه وأفكاره في القرآن والرسول، أو ساعده على نيل شهادة علمية، ليتمعش منها، وإلا فهو من الذين غرتهم الأماني، وغرهم بالله الغرور.

ولنترك كاتبا تونسيا متميزا في مقالاته بإحدى الصحف التونسية، ومطلعا على ما يكتبه الغربيون عن البلاد العربية والإسلامية، وهو الأستاذ مصطفى عطية، يقول عن هؤلاء الذين يتمسحون بأذيال الغرب: ظهرت قوافل العملاء والخارجين عن جلودهم، ليجدوا دور النشر الغربية مفتوحة أمامهم على مصراعيها، ووسائل الإعلام الخاضعة للنفوذ الصهيوني مسخرة للتعريف بهم، وبما يحبرونه من كتابات غارقة في أوحال المازوشية والانتهازية، فطلع علينا الطاهر بن جلون برواية هزيلة «ليلة القدر» طعن فيها الإسلام والمسلمين بخناجر الصهيونية، أي بتلك التهم الرخيصة التي يروج لها أعداء العرب والمسلمين، فحول الإسلام إلى وكر للظلامية، والمسلمين إلى جهلة ودجالين ومشعوذين ومرضى نفسانيين. وبالرغم من ضعف البناء الفني لهذه الرواية، وعدم تماسك أسلوبها، واهتزاز شخصياتها، فقد تحصل صاحبها على جائزة (جونكور) الفرنسية، وأصبح وجها مألوفا لقراء الصحف والمجلات، ومشاهدي التليفزيون في الغرب؛ وبعد أن ذكر الأستاذ عطية أسماء أخرى لنساء أصبحن نجمات في الغرب، لأنهن عادين الإسلام والمسلمين، انتقل إلى وجه مشهور آخر، فقال: ووجد الشاعر السوري الأصل، والفرنسي الجنسية أدونيس الفرصة سانحة لنشر بعض الكتابات المسيئة للحضارة العربية الإسلامية، أملا في الارتقاء إلى سدة المحظوظين في الغرب، وتحقق له بعض ما أراد، إذ أصبحت مواقفه المعادية لأمته وحضارتها مرجعا لدى كافة المفكرين والإعلاميين الذين وظفوا أقلامهم وأبواقهم لتشويه الإسلام وحضارته، كذلك فعل عبد الوهاب المدب في كتابه: «علة الإسلام»، وقد ذهب به الأمر إلى الإيهام بوجود بوادر الممارسات الماسونية في بعض مناهج الفكر الإسلامي، كما ساند البابا في اتهامه للإسلام بتبني العنف. أهـ.

وطلعت عليت في إحدى القنوات الفضائية المشهورة امرأة قليلة الحياء، ولا شيء يدل على أنها تنتمي إلى جنس الإناث، مدعية أن القرآن يدعو إلى الإرهاب، وبما أن القرآن كتبه محمد ﷺ، حسب رأيها، فهو إرهابي. ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: 5].

هـذه المـرأة العربيـة (ولا أسـميها إمعانـا في احتقارهـا) اشـتهرت بعـدائها الشـديد للإسـلام، فاحتفـت بهـا مراكـز القـوى في الغـرب، وسـخرت لهـا منابرهـا ووسـائل إعلامهـا مـن صـحف وتلفازات، وصنفها الغرب ضمن مائة شخصية لها تـأثير في العـالم، وكيـف لا يحتفـي بهـا الغـرب، وهذه المرأة التافهة التي تمرض كل شهر، تتهجم على شخصـية الرسـول ﷺ، وقـد تسـنى لهـا بهـذا التهجم أن تحصل على دعـوة مـن الكـونغرس الأمريكـي، ومـن تـل أبيـب، لتلقـي عـلى الحـاضرين خطابـا في الـتهجم عـلى الإسـلام والمسـلمين، وتلتـذ بالتصـفيق والترحيـب بهـا مـن أعـداء العـرب والمسلمين.

وأذكـر هنـا أن رجـلا عـربي المـوطن والإسـم نـاقش أطروحـة حـول «...» فتجـاوز الحـدود في الحديث عن الرسول وعلاقته بالمرأة، فما كان من الحاضرين، وكلهم من أصحاب القبعات، إلا أن صفقوا له طويلا، تقديرا لجرأته على دينـه، وتعديـه عـلى حرمـة نبينـا ﷺ ، ويبـدو أن الرجـل، وهـو قصير القامة، ومَنْ قَرُبَ إلى الأرض قَرُبَ شَرُّه (ليس كلهم طبعا) كـما جـاء في الأمثـال، اسـتطالت قامته، وأحس بالبهجة والفرحة، وهي، لو يدري، فرحة كاذبة وتافهة...

قبل أن نمر إلى موضوع السيرة النبوية لجعيط، والصاعقة التي ستحول هذا المشروع إلى رماد، نؤكد أننا لسنا ضد المناهج الحديثة، وخاصة في الميـدان البحثـي، ونريـد لهـذه البلـدان أن تتقـدم كـما تقدمت الصين واليابان وحتى الهند، وهي من البلـدان الشرـقية، وأن ترفـرف العدالـة الاجتماعيـة، وأن تكون حرية الفكر والتعبير هما السائدتين في بلداننا، وليكن هذا على مراحل وبالتدرج، ولكن هناك مناطق معينة في ديننا لا يمكن تخطيها، لأن دخولها يعني المس بحرية الآخرين ومعتقداتهم.

ونشير إلى أننا لا نعارض أو نرفض مسألة التجديد في مجال التفكـير الـديني، ونعنـي بالتجديـد فهم الدين على حقيقته، وتقديمه للناس في أسلوب وثوب جديد يتناسب مع خطاب العصر الذي توفرت فيه هذه الوسائل السمعية والبصرية، التي تمكن الإنسان المسلم من فهم دينه بدون تعقيـد، وبدون لبس أو غموض، كما نطالب بتنقية التاريخ العربي الإسلامي ، وخاصة السيرة النبوية التـي شابها الكثير من الخرافات والأساطير، والتي لا تناسب المقام النبوي.

ومن جهة أخرى نؤكد أن الاختلاف في الأفكار والآراء بين الناس أمر طبيعي، ولا ينكره أحد، ولا يؤدي هذا الاختلاف إلى القطيعة أو الكراهية، ما دام الخلاف هو لخير المجموعة، نعم نختلف في الوسائل والطرق، ولكن نتفق في الأهداف والغايات.

هم (أقصد ما يسمى بالمفكرين) يقولون: بأن النصارى أو حتى اليهود توصلوا إلى فصل الدين عن الحياة أو الدنيا، ونسوا أن الإسلام شيء والديانتين المذكورتين شيء آخر. لقد جاء موسى في عصر يختلف عن عصر عيسى، وعصر النبي محمد ﷺ يختلف اختلافا كبيرا عن عصر سابقيه، ومعلوم أن كل نبي بعث لقومه، وكلف بمعالجة مرض استشرى أمره بين قومه، وخرج هؤلاء القوم بممارسته عن طريق الله المستقيم، أما عصر الرسول وما بعده فقد بلغت فيه البشرية مرحلة من النضج الفكري لامثيل لها، وتقاربت فيه البلدان، وتوحدت فيه الأمراض والأدواء، فبعث النبي ﷺ لكافة سكان المعمورة، لمعالجة أدوائها وعلاج أمراضها، وقد سمعت مثل هذا الكلام أو قرأته للمرحوم محمد متولي شعراوي.

إن علاج البشرية اليوم من أمراضها المستعصية نجده في الإسلام، ويتمثل العلاج في التوفيق بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، وإن كان القرآن يقدم الآخرة على الدنيا في قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [القصص:77] لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن عباده متكالبون على نعيم الدنيا الكاذب، ولا يفكرون في الآخرة إلا القليل منهم، ولو فكروا في اليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب، ومن جنة ونار، لاستقامت لهم الدنيا، وعاش الناس في الكرة الأرضية بنعمة الله إخوانا.

لا نقول إن القرآن قدم تفصيلا في خصوص معيشة الإنسان وعلاقته بغيره في المجال الاقتصادي الذي هو المحرك والفاعل في حياة الإنسان اليوم، ولكنه أمرنا بالعدل والإحسان. قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل:90]. العدل هو المساواة، إنْ خيرا فخير، وإنْ شرا فشر، كما يقول الراغب في «المفردات». والعدل كذلك إعطاء الحق إلى صاحبه، وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية، وحقوق المعاملات (الطاهر ابن عاشور في تفسيره: التحرير...).

وروي أنه بالعدل قامت السماوات والأرض تنبيها، كما يقول الراغب، أنه لو كان ركن من الأركان الأربعة في العالم زائدا على الآخر، أو ناقصا عنه على مقتضى الحكمة، لم يكن العالم منتظما.

أما الإحسان فيقال على وجهين عند صاحب «المفردات»: أحدهما الإنعام على الغير. يقال: أحسن إلى فلان. والثاني إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا. وعلى هذا قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الناس أبناءُ ما يحسنون، أي منسوبون إلى ما يعلمون، وما يعملونه من الأفعال الحسنة. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:7]، وقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف:30].

دعنا نقول : إن الإحسان يعم كل حركة في حياة الإنسان تتعلق بكسبه وعمله، أي الإحسان في البيع والشراء، الإحسان في القيام بالعمل الذي كلف به، الإحسان في خلاص العامل الذي أتقن عمله، الإحسان في توزيع الثروة، وإعطاء كل ذي حق حقه. وتجنب الاستغلال والاحتكار هو إحسان، وتجنب التعامل بالربا وتجنب استغلال المحتاجين والتعدي على حقوقهم هو إحسان، وعكس كل هذا يعتبر فسادا وبغيا في الأرض.

نبي الإسلام هو النبي الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس، كما يقول المرحوم جواد علي (ومن يضارعه في كتبه حول تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام؟). فالرسول نعرف عنه الكثير من الجزئيات حتى الثانوية منها. ومعلوم أن النبي موسى وعيسى عليهما السلام لا يعرف عنهما إلا القليل، وبعض علماء الغرب يقولون : إنه لم يوجد رجل اسمه عيسى. كذب هذا الرجل، وكذب علمه،. ويقال عن موسى: إنه قائد عسكري مصري. ثم لماذا نضع الأديان في سلة واحدة؟ أليس هذا من نتائج العولمة البغيضة التي تريد من سكان العالم أن يكونوا مثل الدجاج الأبيض، هذا الذي يصنع في المداجن، والذي لا طعم له، أما رائحته، وهو حي، فتزكم الأنوف.

اختلاف الديانات أمر يقره الواقع والعقل، وعلماء الإسلام نبهوا إليه، وقالوا أن مخالفة الأديان الأخرى هي من باب «اقتضاء الصراط المستقيم» بالاعتماد على أحاديث صحيحة للرسول. نعم منبع الديانات واحد، أو كما قال النجاشي: تنبع من مشكاة واحدة، ولكن بعد أن تلقاها الأتباع كان الاختلاف، وكانت القطيعة. والتجربة أثبتت أن الحوار المسيحي الإسلامي بعد عدة لقاءات كان مآله الفشل الذريع، ولم يجد المحاورون نقاط اتفاق بالمرة، وغاية ما في الأمر أن النصارى، وهم في موقف القوي، صنفوا الأنبياء، ووضعوا رسولنا محمدا ﷺ نبيا من الدرجة الثانية، إرضاء لخاطر المشاركين المسلمين، ومن جهة أخرى كان المشاركون المسلمون يتملقون الجانب المقابل، أي أن الحوار لم يكن متكافئا، والحوار إذا لم يكن بين طرفين متكافئين لا خير فيه، ولا جدوى منه.

إن شِنْشِنة فصل الدين عن الدنيا، أو كما يقول ما يسمى بالمفكرين: «فصل الدين عن الدولة» في الغرب أكذوبة، فالتعلق بالديانة النصرانية من قِبَل الناس، وخاصة من قبل السياسيين في دول الغرب واضح وجلي، ويمكن أن نشير إلى وجود أحزاب دينية سياسية نافذة في ألمانيا وإيطاليا. وفي إسرائيل بالذات يوجد حزب ديني له مقاعد في الكنيست. وحتى من لا ينتمي إلى هذا الحزب متعلق بالدين. أذكر أن بعض السياسيين في إسرائيل ممن ينتمون ظاهرا إلى الاتجاه العلماني عُرِض عليه حل لأمر سياسي ما فقال: موسى لا يرضى بهذا الحل ولا يقبله.

ويجمع بين هؤلاء الكتاب الجدد، أو مفكري آخر الزمان، أنهم تعلموا على أساتذة فرنسيين يمقتون الإسلام، ويكيدون له كلما واتتهم الفرصة، ولا ننسى أن أكثرهم كانوا جواسيس في البلدان المولى عليها، وقد أُشْرِب ما يسمى بالمفكرين حب الثقافة الفرنسية، وأصبحت من مكونات تفكيرهم، وتقيدوا بها، بحيث لا يحيدون عنها، وهذا التفكير ذو الصبغة الفرنسية يريدون فرضه علينا، ويقدمونه لنا في أسلوب مغر وبراق، كأن يقولوا : إنهم يريدون نشر المناهج الحديثة، ومعالجة قضايا الإسلام عن طريقها، وخاصة «الحقائق الكبرى» كما يسمونها هم، أي إعادة قراءته على ضوئها، ولكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلِّيها،

فنحن لسنا ضد الثقافة الفرنسية التي لها خصوصياتها وطبيعتها، ولها رونقها الأدبي، ولكن مناهجها في معالجة قضايا الدين لا تناسبنا، ولا تناسب طبيعة تفكيرنا ونظرتنا للكون والحياة. وأغلب هؤلاء الكتاب، أو ما يسمى بالمفكرين، تعظيما لهم، هم من ذوي الميول الماركسية، وهذا الاتجاه كما هو معلوم ينكر مسألة الغيب إنكارا تاما، ولا يعترف إلا بما هو مادي ومحسوس، والدين عنده أفيون الشعوب ومخدر للناس، ويتخذ ذريعة ومبررا لقمع الطبقة الشعبية، والسيطرة على مقدراتها، وحرمانها من التمتع بالازدهار والرفاهية، والعيش في الجنة على وجه الأرض.

وأغلب هؤلاء المفكرين (؟) لا يؤمنون بأن القرآن وحي من الله على الرسول، وإنما هو اجتهاد منه، ونقل ومسخ لما جاء في التوراة والإنجيل وعن ما شئت من الكتب التي كانت في مكتبات كليات مكة والمدينة، التي تخيلوا وجودها، وعهدي بهم أنهم لا يؤمنون بالغيب، فكيف يتصورون وجود ثقافة هيلينية وكرفوسية كانت سائدة في مكة والمدينة؟

ومن الأمور التي أقضت مضاجع هؤلاء الكتاب الجدد، وكانت هاجسا لهم: أمية الرسول. نعم ينطلقون من معنى «الأميين» في القرآن الكريم، والأميون هم الذين لم يتوفر لهم كتاب مقدس كاليهود والنصارى، ويشيرون بذلك إلى أن الرسول لم يكن أميا، وكل الوقائع والدلائل تشير إلى عكس ذلك تماما، وإذا لم يكن أميا فإنه كما يقول المستشرقون وقساوسة هذه الأيام : أخذ من التوراة والإنجيل، ونقل منهما كما أراد، وألف القرآن، ثم قال : إنه أوحي إليه، وهذا رأي بروكلمان ومن لف لفه، ويبدو، ويا للسخرية، أنهم قد عثروا على مكتبة بها خزائن من الكتب الدينية من المسيحية واليهودية إلى البوذية، ومجلدات للفلسفة اليونانية اشتراها الرسول من مكتبة الأسكندرية قبل حرقها (وبالمناسبة فعمر بن الخطاب ﷺ بريء من حرقها، وهذا موضوع آخر) ولم لا يتخيلون مثل هذه الترهات؟ فحتى بعض علماء الغرب صنع جمجمة بشرية، وادعى أنه عثر عليها في جبال لست أدري ما هي، وزعم أنها من بقايا الإنسان الأول، ثم اتضح زيفه وكذبه، فلماذا لا يعثر هؤلاء المجددون على مكتبة الرسول في رمال الصحراء، أخفاها الرسول قبيل وفاته ﷺ، وعثر عليها في الحفريات التي قام بها بعض علماء الغرب، وأطلعوا تابعيهم عليها، ولم لا؟

وقبل أن نفتح ملف واحد من هؤلاء الكتاب، أو كما يسميهم من يدور في فلكهم بالمفكرين، نشير إلى أننا نهتم بالمساوئ والعيوب، أما المحاسن فهي معروفة، ومن هذه المحاسن أنهم جعلونا نتشبث بعقيدتنا أكثر فأكثر، ونغار عليها من كل قادح، ولا نسكت على من يمس رسولنا، أو يشكك في قرآننا، ويثير الشبهات حوله، وما أكثر من يثيرها هذه الأيام. ومن جهة أخرى فإن هؤلاء الكتاب بذلوا جهدا فكريا لا يستهان به، ولا يمكن للعاقل أن يغمط حق هؤلاء الناس، أو يستنقص من شأنهم، فقد دفعوا الكثير من المسلمين إلى النظر في شريعتهم، واستكناه مقاصدها، وبصفة عامة انتعش التفكير الديني. وتمثل هذا في الردود على هؤلاء الكتاب، قصد إفحامهم وبيان دين الإسلام على حقيقته، وكانوا من قبل يجترون ما قال العلماء والأئمة، ولا يزيدون على ما قالوا، بل ويدافعون عن ما قالوا، وقول الأئمة إنما ينسحب على مشاكل عصرهم، وما جد فيه من وقائع ، ونسوا أن عصرنا يزخر بالمسائل الشائكة التي يجب أن يبينوا رأي الإسلام فيها.

وواضح أن هؤلاء الكتاب الذين أقبلوا على دراسة القرآن والسيرة النبوية في أذهانهم مشروع يريدون تنفيذه، ويتلخص في هدم الثوابت، وما اتفق عليه الإجماع، ليحل محل ذلك ماذا؟ الفراغ، ولا شيء غير الفراغ، أو يريدون منا أن ننخرط في العولمة، ونساق إلى العدم، أو إلى الغرق كخرفان بنيرج، ولهم أن يكونوا هم كذلك، ولكن لا نتركهم ينفذون مشروعهم الهادف إلى تعريتنا من آخر ما تبقى لنا من أثواب، نستر بها عوراتنا، وهو حضارتنا وهويتنا المتمثلة في ديننا ولغتنا.

ومن المشاكل التي ستعترضنا في هذا العمل أن بعض هؤلاء الكتاب يقولون الشيء وضده، بحيث لا ندري أيهما يختار من الرأيين، كأن يقول: القرآن وحي، ثم يعود فيقول: إنه نص بشري، وغير ذلك من المسائل التي سنذكرها فيما يأتي.

ملاحظة هامة لا بد أن نؤكد عليها، وهي أن هؤلاء الكتاب الدين تخرجوا على أيدي أساتذة غربيين، كما أشرنا، يفتقدون التكوين الديني منذ البداية ، وليست لهم معرفة كافية باللغة العربية وقواعدها، وخطر لهم أن ينغمسوا في مسائل الدين، وعقولهم وأفئدتهم هواء، فهم كمن كان متخصصا في الهندسة، وأراد أن يدلي بدلوه في الفقه الإسلامي.

وملاحظة أخرى تقول: إن هؤلاء الكتاب يُمْتَدَحُون (ممن هو على شاكلتهم) بأن لهم جرأة على الدخول إلى المناطق المحرمة في الإسلام، ولا ندري ما الفائدة من هذه الجرأة؟ ولماذا يمْدَحون بها؟ هل لأنهم يستهينون بديننا، ويستنقصون من شأنه؟ ونعلن هنا بكل وضوح أن أحكام الإسلام وشرائعه ، وما ثبت بالنص القطعي قرآنا وسنة، هي أمور أبدية، لا تقبل النقض أو النقد، ومن اجتهد فيها فهو رأي شخصي يلزمه، ولا علاقة له بدين الإسلام، كأن يطالب مثلا بمساواة المرأة والرجل في الميراث، أما ما عدا ذلك فللمرء أن يقول في التراث ما شاء، ونعني بالتراث ما كُتِب حول النص الأساسي، وما كتب يهم واقع العالم أو المفكر، ويهم مخاطبيه، وهذا التراث ليس بمقدس كما يتراءى للسيد أركون وغيره، فلنا أن نجتهد كما اجتهدوا، وننظر في النص الأساس كما نظروا، كما قال الأفغاني أو قريبا من هذا.

سؤال: ماذا يريد العلمانيون من إعادة النظر في تاريخ القرآن، وسيرة الرسول الكريم؟ لقد درس المستشرقون والقساوسة تاريخ القرآن، وأبرزوا ما وقع فيه من زيادة ونقص وحذف، ردا على القرآن وعلماء المسلمين الذين يقولون (بالاعتماد على القرآن طبعا) إن الإنجيل (في الحقيقة أربعة أو خمسه أناجيل) الموجود بين يدي النصارى اليوم لم يكن هو الإنجيل الذي خلفه السيد المسيح عليه السلام أو أتباعه، ومنهم من كان حاقدا على الإسلام مثل لامنس وبروكلمان وفون غرنباوم وأندري ميكال، ولا نعمم فبعض المستشرقين درسوا الحضارة الإسلامية، وحاولوا أن يكونوا منصفين، والبعض درس القرآن والسيرة النبوية، وتوصل في آخر الأمر إلى اعتناق دين الإسلام، لأنه رآه حقا، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر دينيه (سمى نفسه منصورا) ومحمد أسد، ومراد هوفمان، أما العلمانيون العرب، وقد أعادوا أطروحات المستشرقين، وزادوا عليها أشياء كثيرة، فهم كما يبدو يريدون محو الدين من الوجود، لماذا؟ لأن هذا الدين ينهى عن الزنا، وشرب الخمر، وارتكاب الفواحش، والتعدي على متاع الغير، وغير ذلك من المفاسد والشرور، وهو بالتالي يقيد حرية الإنسان، ويمنعه من الدخول في المناطق المحرمة، وبعضهم يشعر بالخجل أو النقص تجاه الآخر، عندما تذكر لهم أن الإسلام يأمر بقطع يد السارق، وتجريم الزنا، وحتى الجهاد في سبيل الله والوطن الذي أصبح يسمى إرهابا،

ولا نعمم هنا كذلك، فبعض هؤلاء العرب يريدون، كما يظهر، كسر الجمود، ونبذ التقليد الذي اتسم به بعض العلماء، وتعلقوا بالقديم، ولو كان غير ملائم لحياتنا، وإعادة النظر في السيرة النبوية، وهي لا تخلو من قصص وخرافات زائفة، وكتابتها بمنهجية نقدية، بشرط أن لا يقع اختراق ما هو معلوم بالضرورة في هذه السيرة النبوية، وما وقع عليه الإجماع، بالاعتماد على المرويات الصحيحة المقامة على أسانيد لا يُشَكّ في نزاهتها وعدالتها.

وأشير في الختام إلى أنني لم أشأ أن أثقل هذا الذي كتبت بالتعاليق والهوامش، والإحالة على المصادر والمراجع والصفحة وتاريخ طبعها ومكانها، بيد أنني أذكر في كثير من الأحيان، وأنبه إلى إسم الكاتب الذي أخذت منه ما أخذت، وليس لي من غاية سوى أن أقول ما أراه هو الصواب، والأقرب إلى الحقيقة، فإن وفقت فالحمد لله، وإن أخطأت فالعذر عند كرام الناس مقبول، والله المستعان.

الصاعقة تتنزل رويداً رويداً

دخلت قاعة الأساتذة بالكلية التي أعمل بها، فرأيت رجلا جالسا وحده، فسألت عنه زميلا لي، فهمس في أذني قائلا: الأستاذ هشام جعيط، ورجعت بي الذاكرة إلى أوائل الستينيات، يوم كنت تلميذا بالتعليم الثانوي، وكان الشيخ جعيط (نسيت اسمه الأول) يدرسنا أصول الفقه، لم نره فارق كرسيه يوما، كان يلقي علينا مسائل هذا العلم، وهي عويصة ومعقدة بالنسبة إلينا، وليس لنا الحق في الاستفسار أو المناقشة، كان يعاملنا، ونحن في العشرين أو أكثر، كما يعامل الصغار المشاغبين، ولم نكن نحن نشاغب، أو حتى يُسْمَع لنا صوت، كان الغضب شعاره منذ دخوله إلى القسم حتى خروجه منه بعد ساعتين من الدرس، وكان لنا أكثر من حصة في الأسبوع، وفي بعض الأحيان يسكت عن الدرس، وتنبسط أساريره، دون أن يبتسم، ويقول بمناسبة وبغير مناسبة: ابني سينال الدكتوراه في التاريخ من فرنسا. كأنه يقول لنا: ماذا تساوون أنتم أمام ابني هشام؟ هكذا فهمنا في ذلك الوقت. في حين كان غيره من الأساتذة يعاملوننا بلين ورفق ومحبة في بعض الأحيان، ولم نفهم لماذا يكشر لنا عن أنيابه، وقد يسمعنا ما نكره، دون أن نرتكب ذنبا يذكر، فكل المعلومات يقدمها لنا في لهجة لا تخلو من غضب، وقد يعلو صياحه فننكمش، ونطلب من الله السلامة، ونعني بالسلامة انتهاء الحصة، والخروج إلى الفضاء الرحب.

وما زلت حتى اليوم عندما أذكره، غفر الله له، أسأل: لماذا كل هذا الحنق الذي يبديه لنا؟ أتذكر أننا كنا في شهر رمضان، أو أن رمضان على الأبواب، فسكت عن الدرس، وقال لنا: يقولون، أي العامة: سيدي رمضان، وأخذ يصرخ في وجوهنا كأننا مسؤولون عما يقول عامة الناس، ويقول: هو شهر، فكيف نقول له: سيدي، ما هذا الجهل؟ وعاد إلى الدرس.

نعم كنا فقراء، ولم تكن ثيابنا لائقة، ولكنها كانت نظيفة، فهل كان الشيخ يشمئز من ثيابنا الرثة، ونحن الذين أتينا من جهات الجمهورية، وأكثرنا من الريف؟ لعله، والله أعلم، كان يعتبرنا آفاقيين، والآفاقيون مكروهون عند الشريحة الزيتونية من سكان العاصمة، فقد كانوا يزاحمونهم في الوظائف الشرعية، والتدريس وغيره، ويقولون لهم : أنتم تستطيعون القيام بالأعمال الفلاحية، وغيرها من المهن الأخرى الوضيعة، أما نحن فليس لنا القدرة على ذلك، ولكن نحن من نزاحم؟ لقد فات عهد المزاحمة بعد الاستقلال، وأغلب من كان معي ذهبوا إلى التعليم الابتدائي، وكانت وزارة التعليم في حاجة أكيدة إليهم في ذلك العهد.

والشيء بالشيء يذكر، فذات يوم كان لبعض الأساتذة اجتماع في إحدى الكليات، وكان هذا الاجتماع في قاعة صغيرة، بحيث لا تسع جمعهم، وحانت مني التفاتة، فرأيت عجبا، رأيت أستاذا من هؤلاء الذين يسمون بـ«البلدية» (أي سكان الحاضرة الأصليين) يمسح كم قميصه كمن يزيل الغبار عنه، وهو يتأفف بعد أن مسه أستاذ (جاء من خارج العاصمة) بكم جاكتته، فكانت حركة الأستاذ من زميله غريبة، وما زلت أذكر هذه الحادثة، وقد مر على وقوعها أكثر من ثلث قرن.

والحق أقول : إن الشيخ جعيط غفر الله له كان ملما بعلم أصول الفقه إلماما جيدا، وقد أحسنت إدارة المدرسة الاختيار عندما كلفته بتدريس هذه المادة، ويندر أن تجد مثله من يفهم علم أصول الفقه في تلك الفترة، ما عدا الشيخ محمد علي السهيلي رحمه الله، الذي كان يسرد هذا العلم عن ظهر قلب، لقد فهمنا هذا العلم من خلال دروس الشيخ جعيط، وتقدمنا للامتحان فكان النجاح حليفنا، خصوصا في هذه المادة التي بذلنا نحن من جهتنا فيها المجهود الذهني اللازم.

والى جانب أطلاعه الواسع على أقوال علماء الأصول (في النَّسْخ مثلا الذي ما زلت أذكره) وأدلتهم كان شيخنا، رحمه الله فصيحا، فلا تعثُّر في التعبير، ولا ارتباك في الكلام، وكيف لا يكون كذلك، والرجل خريج جامع الزيتونة، الذي حافظ، كما هو معلوم، على هوية تونس العربية الإسلامية منذ زمن طويل، وخاصة في عهد الاستعمار الفرنسي، وأهم ما يبقى من تدريس بعض الشيوخ والأساتذة هو تلك القيم التي تعلمناها عنهم، وخاصة ما أخذناه عن الشيخ جعيط، فقد علمنا أن نحب ديننا، وأن نتمسك به، ولا نرضى به بديلا، وجاء ابنه من بعده لينسف كل ما أخذناه عن والده المرحوم، ولكن أنى له ذلك؟

لقد تتبع الدكتور إبراهيم عوض، في بحث له على الإنترنت عما كتبه جعيط في السيرة النبوية، الأخطاء الشنيعة النحوية والتركيبية التي وقع فيها مؤرخنا في كتابه: «في السيرة النبوية ـ 2 ـ تاريخية الدعوة المحمدية في مكة» كما سنرى في مكانه، وواضح أن الدكتور عوض يريد أن يقول :إن من يكتب بهذه الطريقة غير مخوَّل، أو غير قادر أن يفسر القرآن، وأن يقول هذه الكلمة لا تتسق مع مجمل الآية، وغير ذلك من المسائل التي تهم أهل الاختصاص.

وما يؤخذ على الأستاذ جعيط كما يقول الأستاذ فريد العليبي : أنه لا يتأنى في اختيار الكلمات والألفاظ المناسبة، من ذلك أن جعيط يتحدث في كتابه: «الوحي والقرآن والنبوة» عن الشعب الإسرائيلي والديانة الإسرائيلية، وهذا الحديث ليس في حاجة فقط إلى تدقيق من الناحية المفهومية، وإنما كذلك إلى حذر من الناحية السياسية والإيديولوجية، فهل هناك بالمعنى التاريخي والسيسيولوجي شعب اسمه: «الشعب الإسرائيلي»؟ وهل هناك ديانة إسرائيلية؟ أم أن هناك ديانة يهودية، يشترك في الاعتقاد في تعاليمها الناس من شعوب شتى، منهم الأبيض والأسود والأوروبي والأسيوي والإفريقي؟

ولا تخفى بطبيعة الحال الاستتباعات المترتبة عن مثل هذا الحديث الذي يحيل الآن على كيان غير شرعي، لا يزال يلهث خلف تسويق أساطير تأصيلا لذاته في أرض انتزعها انتزاعا من أصحابها الشرعيين.

كذلك سوء فهمه لما جاء في بعض كتب السيرة، فقد أنكر (كما نبه الدكتور عوض) سفارة عمرو بن العاص صحبة عبد الله بن ربيعة إلى نجاشي الحبشة لطرد المسلمين الذين لجؤوا إلى بلاده، اعتمادا على كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، في حين أن البلاذري لم يرفض هذه السفارة، بل قال : إنها «الثبت» عنده، أي أنه يقبل سفارة عمرو بن العاص مع عبد الله بن ربيعة ويرفض سفارة عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد، وقال عنها : إنها «وهم».

تذكرت كل هذا، وأنا أنظر من طرف خفي، إلى هذا الرجل الذي يجلس وحده، لا يلتفت يمينا ولا يسارا، ورأيت أنه يشبه والده في ملامحه وهيئته، ومن شابه أباه فما ظلم.

من شابه أباه فما ظلم

وأعلن عن محاضرة سيلقيها هذا الدكتور جعيط عن السيرة النبوية في إحدى الكليات، وجاءني أحد طلبتي ممن أستمع إليه، وأعلمني أن الأستاذ جعيط رفض الأسئلة والنقاش في آخر المحاضرة وخرج، وبقي الحاضرون في حيرة من أمرهم، وقلت في سري: هذا ليس بغريب، فقد كان والده يرفض أن نستوضحه في مسألة تخص أصول الفقه، وما أكثرها، وأشد تشعبها، وقلنا تلك طبيعة فيه، سامحه الله، وغفر الله له، وقلنا أيضا: إن مسائل البرنامج كثيرة، ويريد أن ينهي المقرر قبل فوات الأوان، ومرة أخرى: من شابه أباه فما ظلم.

وبداية نشير إلى أن ما كتبه الدكتور جعيط عن السيرة النبوية، كما سنرى، أغلبه موجود في كتب المستشرقين بألفاظه وحروفه، وعلى هذا الأساس فالصاعقة ستحول ما كتبه هؤلاء عن الرسول ﷺ إلى رماد، وستنزل مجازا على أوراق جعيط التي نقلها عن هؤلاء المستشرقين، ولا نقصد شخصه كإنسان، والرجل كما نعلم ينتسب إلى أسرة علمية لها دورها في بث الوعي الديني في المجتمع التونسي زمن الاستعمار.

وأبرز من اشتهر من عائلة جعيط العالم والفقيه محمد العزيز جعيط، أول مفت للديار التونسية في عهد الاستقلال، وله دراسات علمية قيمة نشرها بـ«المجلة الزيتونية» تنم عن عمق ثقافته الدينية، ومدى إدراكه لأسرار الشريعة الإسلامية، مثل «التوكل على الله» و«الإسلام دين ودولة وقومية»

و«الحرية في التشريع الإسلامي» و«التشريع الإسلامي والمرأة». وقد درست آثاره في أطروحتي: «التفكير الإسلامي في نصف قرن من خلال المجلات الدينية التونسية 1904ـ 1955 - نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس 2005». وهو من الذين طالبوا بأن تكون تونس دولة عربية، دينها الإسلام، ولغتها العربية، وأن يكون هذا هو الفصل الأول في الدستور التونسي الجديد، الذي دُوِّن بُعَيْد الاستقلال، ولعله كان أحد محرريه.

الأستاذ جعيط مؤلفًا

ألف الأستاذ هشام جعيط الكثير من الكتب، نذكر منها: «الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية» و«الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي» و«أزمة الثقافة الإسلامية» و«أوروبا والإسلام- صدام الثقافة والحداثة» و«الفتنة: جدلية الدين والسياسة» و«في السيرة النبوية: الوحي والقرآن والنبوة» و«السيرة النبوية: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة». و«الدعوة المحمدية» تعبير مقبول إذا حسنت النوايا، أما إذا كان خلاف ذلك فالمقصود غرس الاعتقاد الخاطئ في الأذهان بأن هذا الدين منتشر بفعل إنسان كما يقول موريس بوكاي. وبالمناسبة فبوكاي عاش في بيئة مسيحية محافظة، ثم اعتنق الإسلام عن روية وتبصر. ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:56].

ويهمنا هنا التعرض إلى رأي الدكتور جعيط في بعض القضايا التي أثارها، والتي تخص سيرة الرسول ﷺ في كتابيه: «الوحي والقرآن والنبوة» و«تاريخية الدعوة المحمدية في مكة»، وإن كنا في بعض الأحيان لا نفرق بين الكتابين.

توجهاته السياسية والفكرية

وقبل مناقشة ما جاء في هذين الكتابين نشير إلى أن الرجل معجب بميشال عفلق منظِّر البعث، وليست لنا أية نية مهما كان نوعها من هذه الإشارة، فالأستاذ جعيط قد أعلن في بعض كتبه عن هذا الإعجاب عندما قال: «ميشال عفلق »نبي سياسي» وقد ولد أيديولوجيا، ومهما كانت التطورات التي عرفتها النظرية والعمل البعثي، فإن فكر عفلق هو الذي أعطى إشارة الإنطلاق، وهو من عدة وجوه أثرى فكرا، وأكثره تلونا وإنسانية، ولعله ما يشرفه تماما أنه أقصي باستمرار عن الأنظمة البعثية القائمة» ويعتقد «أن كل النجاح الذي حققه عبد الناصر هو التمويه» .

وإذا كان له الحق في أن يتبنى الفلسفات والنظريات التي يرى، فإننا نعيب عليه تمنيه أن تفرض الولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية على الشرق الأوسط، هذا التمني، ومعناه في العربية الاستحالة، قد يكون تفوه به الأستاذ جعيط، وهو في حالة يأس من الأنظمة السياسية العربية، وما وصلت إليه من هوان في تعاطيها مع القضايا العربية المصيرية، وإلا كيف يمكن لكاتب، يحسب على التقدميين، أن يتفوه بمثل هذا الكلام، فمتى كانت أمريكا تسعى لخير الشعوب، وخاصة منها العربية؟ إنها دولة لا يهمها من الغير إلا خدمة مصالحها،

ولا شك أن الدكتور جعيط لا يغيب عنه ما فعلته هذه الدولة الاستعمارية في العراق، وهو نظام بعثي، وما وصل إليه حال العراقيين الذين أضحوا في المرتبة الثانية من حيث الهجرة في العالم، والهروب من أتون الحرب والفتنة الطائفية، فأي ديمقراطية هذه التي تكون مفروضة على الناس؟ ولا نطيل في هذه المسألة، فالناس على علم تام بأخطبوط الديمقراطية التي ترغب هذه الدولة الجهنمية نشره بين الشعوب.

إننا لا نقبل مطلقا الاستقواء بالغير قصد الإصلاح والتغيير، وكأنني سمعت بصدور قانون في تونس يعاقب من يستنجد بالغير ضد بلاده عقابا صارما. ومن شاهد أو سمع ما جرى في العراق يتبين له ماذا فعلت هذه الديمقراطية المزيفة بالعراقيين. آلاف القتلى والجرحى والمشردين، كما أشرت، فهل يرضى المثقف الحر بما رضي به مثقفو العراق الشيعة سياسيين ورجال دين، وخاصة المسمى السيستاني، لقد ملأ الحقد صدور هؤلاء القوم على رجل جعل العراق دولة لها كلمتها في المجال الإقليمي والدولي؟

لقد سمعت الأستاذ جعيط ذات يوم، وهو يتحدث عن الاعتداء الأمريكي على العراق سنة 1991، فكانت مداخلته من أروع ما سمعت: تنديد بالاعتداء، ودعوة ملحة إلى إعانة العراقيين في محنتهم، وقلت هذا هو الكاتب الذي نريد، ورحم الله شيخنا الذي أنجب هذا الرجل العظيم، وإذا به بعد أكثر من عشر سنوات يتمنى أن تفرض علينا أمريكا ديمقراطيتها الكريهة، فأف للديمقراطية إذا كان مصدرها هذه الدولة البغيضة.

ولا شك أنه يبالغ مبالغة شنيعة عندما يقول في كتابه: «أزمة الثقافة الإسلامية»: إن البلاد العربية لا تتعدى كونها «صحراء ثقافية في كل المجالات، في التراث، كما في استيعاب الثقافة الغربية، في الكتاب كما في الرسم والموسيقى أو المسرح، في المعرفة كما في الأدب» ما هو الحل إزاء هذا الانحطاط العام؟ يقول: الحل في تتبع الغرب خطوة خطوة؛ لأن الحضارة الإسلامية تنتمي إلى الحضارة الزراعية القديمة التي تجاوزها تاريخ الحداثة، فالإسلام عنصر عتيق (؟)، والحداثة الجديدة تقطع الصلة مع كل دين.

لا شك أن الأستاذ جعيط على علم تام بأن من دعاة النهضة العربية الحديثة من نادى بمثل ما نادى به، ومنهم خير الدين في تونس، فماذا كانت النتيجة بعد قرنين؟ لا شيء، نعم ازداد إقبالنا على المواد الاستهلاكية التي ينتجها الغرب، وأَكْثَرْنا من إيراد الماكياج والمساحيق، ثم لا شيء بعد ذلك.

وأذكر هنا ما قاله المفكر السوري برهان غليون في هؤلاء المنبهرين بالحداثة الغربية بأنهم تحولوا إلى عميل حضاري لحضارة أخرى، فهم يروجون لبضاعة فاسدة، ينعتها غليون بالحداثة الحثالة.

ولعله من المفيد قبل أن نرى موقف الدكتور هشام جعيط من السيرة النبوية أن نقدم لمحة قصيرة عن معالجة المستشرقين لمسائل السيرة، ومناقشتهم لما أجمع عليه العلماء من أخبار، حتى أصبح لديهم من المسلمات.

السيرة النبوية عند المستشرقين

نشير في البداية إلى أن القديس يوحنا الدمشقي المتحامل على الإسلام قد مهد الطريق للمستشرقين، ووضع نصب أعينهم ما يجب أن يقولوه عن الدين الإسلامي، فأكثر ما يزعمونه، كما يقول المرحوم جواد علي، ويذكرونه، منقول عنه، وهو مما كان قد قاله ودوّنه من قبلهم بما يزيد على ألف عام (مات سنة 749 م). فقد ادعى يوحنا أن الرسول أخذ علمه عن أهل الكتاب، وزعم أن الرسول قد نظر في التوراة والإنجيل، وأنه تعلم منها وتنبأ، وزعم كذلك أن الإسلام انتشر بحد السيف، لا بالحجج والإقناع. وما زال هذا الكلام يردد حتى أيامنا هذه. ألم يزعم بابا الكنيسة الكاثوليكية الحالي أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن المستشرقين ما زالوا إلى يوم الناس هذا يرددون ما يقوله هذا القديس، وقد سمعه حكام المسلمين، وهم في موقف القوي، ولم يردوا عليه، أو يمسوه بأذى، وتركوه يهذي؟ ولكن هذا الهذيان أصبح عمدة لدى دراويش الكنيسة، وكتبة النصارى، ومن تبعهم من العلمانيين العرب، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد استغل المستشرقون الكثير من الأخبار الواردة في كتب السيرة التي دونت في عهد الجمود، وتقلُّص النفوذ السياسي لدى العرب والمسلمين، فقد كان هؤلاء الكتاب كحاطب ليل، همهم تضخيم السيرة، وحشر كل ما هب ودب من الأخبار الموضوعة، والأساطير والخرافات الزائفة، وكأنهم يقولون لعلماء الجرح والتعديل: غربلوا أنتم هذه الأخبار،

واقبلوا أو ارفضوا أنتم منها ما تريدون، ومن جهة أخرى فإن العامة يقبلون على هذه القصص، التي يجدون فيها متعة وتشويقا، ولا يهمهم إن كانت هذه الحكايات صحيحة أو كاذبة، ومعلوم أن العظماء تُنْسَج حولهم القصص، وتحاك حولهم الخرافات والأساطير.

فماذا فعل المستشرقون؟ يقول جواد علي: آخُذُ على بعض المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان، وحكمهم بموجبه، ولإصدارهم أحكاما بنيت على الألفاظ المشتركة، أو المتشابهة ،مع قولهم بوجوب استعمال النقد، ووجوب التأكيد من معرفة الآخذ، قبل الحكم عليه، وآية ذلك أن بعض المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وأنهم إن تطرقوا إلى الموضوعات الحساسة في الإسلام حاولوا جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من يهود، وخاصة بعد تأسيس إسرائيل، وتحكم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء.

ثم يقول جواد علي: إن المستشرقين غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة، وقد أثاروا الشك حتى في إسم الرسول ﷺ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي، وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب، فقدموه على المعروف المشهور، استعانوا بالشاذ، ولو كان متأخرا، أو كان من النوع الذي استغربه النَّقَدة، وأشاروا إلى نشوزه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك، ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ﷺ فإن سيرة الرسول هي أوضح وأدق سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء.

ولنقرأ ما كتبه أحد المستشرقين، وهو إتيين دينيه، في نقده للمستشرقين الذين كتبوا سيرة الرسول، وقد كشف عن نواياتهم المغرضة، يقول:إنه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة، وإنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا يغشِّي على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها. ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإنا نلمس من خلال كتاباتهم محمدا يتحدث بلهجة ألمانية، إذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا. وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب، وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال وولتر سكوت واسكندر دوماس.

وها هو جواد علي يحدثنا عن المستشرق الإيطالي كايتاني، وهو من الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول، كان يعتمد منهجا معكوسا في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي، والذين يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه، إذ إنهم يبيتون فكرة مسبقة، ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ، لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم، ويستبعدوا ما دون ذلك، فلقد كان كيتاني ذا رأي وفكرة، وضع رأيه وكوّنه في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فلما شرع فيها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها، ولا سيما ما يلائم رأيه. لم يبال بالخبر الضعيف، بل قواه وسنده وعده حجة، وبنى حكمه عليه، ومن يدري؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها، وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها؛لأنه صاحب فكرة، يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إنْ ترك تلك الروايات، وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث؟

لو لم نكن نعرف أن جواد علي، رحمه الله، توفي سنة 1987 لقلنا إنه يتحدث عن الكتاب العرب الذين نحن بصدد عرض آراء واحد منهم في خصوص تاريخ القرآن والسيرة النبوية، وهو الأستاذ جعيط الذي يوصف عمله لدى البعض المرتمين في أحضان العلمانية والحداثة التي تجاوزها الغرب، وما زال المقلدون متعلقين بها، يوصف بأن كتابه خطير بمعنى ما؛ لأنه قد يؤدي إلى مراجعة شاملة للتاريخ الإسلامي، وبالأخص لتاريخ المدونة القرآنية والبعثة النبوية، وإلى هدم لمقدسات راسخة، وتعرية لخلفياتها الأسطورية، وزيفها التاريخي، وليس للقارئ العلماني إلا أن يثني على هذا التوجه الفكري الجديد، وأن يعتبره مثالا يحتذى به (لماذا كل هذا التنويه؟) ليكون برهانا للنقاد الغربيين، ومن جرى مجراهم من أولئك الذين يدّعون أن كتاب السيرة العرب لا يملكون أي حس نقدي، ويجهلون أبسط قواعد الموضوعية العلمية، غير ملمين بالعلوم الإنسانية، وقد ذكر منها هذا الكاتب تاريخ الأديان والفيلولوجيا والفينومولوجيا، وبحق عُدَّت أعمالهم غير جدية بالمرة، ولا أحد من المستشرقين استشهد بها، وأخذها بعين الاعتبار.

معنى ذلك أن مراجعة حياة الرسول على النمط الغربي سيجعل الغرب والمستشرقين خاصة يقبلون على كتبنا، وماذا يريد الغرب منا؟ يريد أن نقول في كتبنا : إن الرسول أخذ من التراث اليهودي والمسيحي الشيء الكثير، الأمر الذي ساعده على كتابة (؟) القرآن بتلك الطريقة، وعند جمع القرآن وقع فيه التحريف، ونُقِصَ فيه وزِيدَ، تماما كما وقع للتوراة والإنجيل، ونؤكد له أن السيرة النبوية كتبت على غرار الأناجيل، وأن الرسول كان يكتب بالعربية والسريانية، وأنه سمى اسمه في المدينة: محمدا؛ لأنه وجد هذا الإسم في العهدين القديم والجديد، أو في أي كتاب ديني آخر، هذا ما يريده المتطفلون على موائد الغرب، وخاصة سادة الفاتيكان.

وعندها سنجد ترحيبا من لدن الكتاب والصحافيين الغربيين، كما وجدته تلك المرأة التي فتح لها المجال لتخطب في أحد البرلمانات الأوروبية، وتهاجم الإسلام والمسلمين.

وصدق القرآن الكريم عندما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120] فلنكتب كما نرغب وكما نريد، تاريخ القرآن والسيرة النبوة، أحبوا أم كرهوا، وكفانا من التقليد يا عباد الله. والمثل العربي يقول: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

ولكن لا ننسى أن من بين الغربيين من رفع عقيرته مناديا بأن النظرة الخاطئة عن الإسلام والقرآن لا بد أن نتجاوزها، وننظر بكل تجرد إلى الإسلام ونبيه المظلومين، فهذا موريس بوكاي يعلن للملأ من قومه أن أفكارا مغلوطة وخاطئة كانت تُتَدَاوَل في بلادنا (أي فرنسا) لمدة طويلة عن القرآن الكريم، وعن النبي ﷺ، ولما تزل كذلك بصدد مضمونه وتاريخه، ومن الضروري جدا أن نستبق الأمور بعرض الأمور التي يعبر بها عن الإنسان. لا جرم أن الثوابت المتعلقة والمستخرجة من آياته ستدهش غيري، كما أدهشتني عندما اكتشفتها، فإن القرآن الكريم يتضمن في آياته المتعلقة بالإنسان أشياء مذهلة، وبالتالي يصعب على الفكر البشري تفسير وجودها في العصر الذي أُبْلِغ فيه للناس، ونحن نعلم مدى مداركهم في ذلك العهد، وعندما نلاحظ أن تطابقات ذات معنى كبير بين معطيات علمية مثبتة حكما وبين كتاب سماوي، يصبح من الضروري تمحيص الأحكام المتسرعة التي أخذت بعين الاعتبار تصورات مجردة أكثر منها وقائع.

وقد ألقى بوكاي محاضرة في المجمع العلمي الفرنسي- بين فيها بوضوح ما توصل إليه بعد المقارنة بين حقائق العلم وما جاء في القرآن عن تلك الحقائق، واتضح له مدى المطابقة بين ما جاء في القرآن وبين العلم، وسأل هؤلاء العلماء في آخر المحاضرة عن رأيهم فلازموا الصمت.

وإذا كان أحد هؤلاء الكتاب لا يلتفت إلى الدكتور موريس بوكاي فذلك لأنه لا يجاري المستشرقين في كيدهم للرسول، وسلقهم له بالسنة حداد، وقد ملأ الحقد قلوبهم، فأخذوا يلصقون التهم بالنبي، ويلبسون الحق بالباطل، نكاية بشخص الرسول. الدكتور بوكاي يعرف هذا وأكثر، فلم يلتفت إلى ترهاتهم، ولم ينبش في مزابلهم، فقد كان هؤلاء الحاقدون على الإسلام والرسول ينطلقون من مرجعية دينية، فرجل مثل لامنس وصف الرسول بأبشع النعوت، كالكذب والتلفيق والتشنيع والتزوير والتأويل الفاسد، وقد عبر (كما وضح ذلك لخضر شايب صاحب كتاب «نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر») عن الدافع لحقده في هذه الفقرة التي وضع فيها كل سمه وأسفه على ما كان، فقال: ولولا الإسلام لاستطاع اليهود والنصارى أن يقتسموا الجزيرة العربية. وكان جولدزيهر (كما ورد في الكتاب المذكور) يقف بالمرصاد، ليرد كل مسيحي أراد الدخول في الإسلام، وفي هذا دليل كاف على حقده،

وعدم رضاه بدخول الباحثين عن الحق فيه، وكان يرد على المسيحيين الذين كانوا يتوجهون إليه طالبين رأيه في اعتناق الإسلام قائلا: ولماذا تتحولون إلى الإسلام؟ إن لديكم دينا طيبا، مما يذكرنا بأسلافه من أحبار اليهود في عصر الرسول الذين كانوا يصدون المشركين عن الدخول في الإسلام، وقد حكى عنهم القرآن، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 51] وكان (كما يقول لخضر شايب) قد أرجع كل العقائد والشرائع التي جاء بها الإسلام إلى اليهودية أو المسيحية أو العقائد والسلوك الديني للجاهليين (؟). فالإيمان بالله يهودي المصدر (إله اليهود الذي يشعر بالتعب، أو الذي يتصارع مع أحد أنبيائهم)، كما أن الصوم مأخوذ عن اليهود، وشعائر الصلاة ذات أصل مسيحي، أما الحج فقد استمده الإسلام من التقاليد الوثنية التي حافظ عليها محمد ﷺ ولكنه كيفها مع متطلبات التوحيد. وباختصار فكل ما ورد في الإسلام من فضائل ذات مصدر أجنبي، عند جولدزيهر اليهودي.

والغريب بل والعجيب أن المستشرق الفرنسي كازانوفا يرى أن محمدا ﷺ كان ينتمي إلى فرقة مسيحية تؤمن بأن الزمان قد انتهى، وكانت لا تنتظر إلا قدوم نبي آخر أخبر عنه المسيح، وهو يحمل إسم «باركل» والذي يقابل في العربية «أحمد»، وهي صيغة أخرى لإسم محمد ﷺ، وقد زعم النبي أنه هو المعني بالإسم. ولا ندري ما هي هذه الفرقة المسيحية ؟ وهل توجد في شعاب مكة؟ أما بشارة عيسى بقدوم «باركلي» أي الرسول محمد، فهو حق أثبته عبد الأحد داود في كتابه: «محمد في الكتاب المقدس». والرجل من كبار علماء اللاهوت النصارى اعتنق الإسلام، وقدم أدلة من الكتاب تبين أن «باركلي» التي أشار إليها كازانوفا، هو حق لا مراء فيه ولا جدال.

ويرفض كبير المستشرقين الفرنسيين بلاشير نبوة محمد ﷺ، ويعتبره رجلا متأثرا بالمصادر اليهودية والمسيحية التي تعلم أصولها في صباه،. ولم يقل لنا على يد من تعلم هذه المصادر التي يرددها كل مستشرق بدون استثناء. هل تعلمها في مدرسة جبر وبلعام؟ وهما في الواقع خلو مما جاء في الديانتين المذكورتين، وما أبعدهما عن فهم اللاهوت اليهودي والمسيحي! ولكنها رمية من غير رام. وبلاشير يعيد بالحرف الواحد ما كان يقوله المشركون عن علاقة الرسول بهذين الغلامين، وإن كان المشركون يقولون ذلك من باب الاستخفاف والاستهزاء بالرسول، وما كان في نيتهم أن الرسول أخذ القرآن عن الغلامين؛ لأنهم يعتقدون جيدا أن هذا البيان والفصاحة لا يتحلى بها هذان الغلامان، فهما لا يستطيعان النطق بجملة عربية صحيحة، فما بالك بهذا الإعجاز القرآني؟

أما بروكلمان فكان كلامه عن الرسول يقطر حقدا وضغينة، فالرسول عنده شهواني، لم يجز لأحد غيره أن يتزوج عددا غير محدود من النساء، واتهم الرسول بأنه كان يحذف ويزيد في القرآن كما يشاء، والقرآن (كما يقول) أخذه عن الديانتين اليهودية والنصرانية، وكيفه تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه الدينية. ويرى أنه متأثر إلى أبعد حد بقس بن ساعدة، وفي أثناء عزلته بغار حراء رأى أن قومه على ضلال، يعبدون الأصنام، فقارن بين هذه العبادة وعبادة التوحيد التي استقاها من اليهود والنصارى (هل النصرانية ديانة توحيد أو ديانة تثليث؟) فقرر أن يدعي النبوة، ولا وحي نزل عليه ولا هم يحزنون.

وبصفة عامة كان الكثير من هؤلاء المستشرقين بارعين في الدس على الرسول، وحشد الكثير من الصفات البذيئة التي لا يتفوه بها الإنسان العادي، فما بالك بمدعي البحث العلمي. ويلوح الاحتقار والحقد على مبادئ الإسلام في كتاباتهم، وذلك قصد تشويه صورة الإسلام، وشخصية محمد ﷺ بالذات، ولكن هذه الحملات المسعورة لم تمنع ذوي الألباب من العلماء والمستشرقين من الدخول في الإسلام وما أكثرهم، نذكر منهم على سبيل المثال نصر الدين دينيه، ومحمد أسد، وعبد الواحد جينون وغيرهم، وما زالت البقية في الطريق.

وستتضح بعض المواقف الأخرى من السيرة النبوية عند المستشرقين من خلال نقول الدكتور جعيط عنهم.

كاتب عربي يتعصب للاستشراق والغرب

ولا بد هنا من التعرض إلى الكتبة العرب المتخرجين من المدرسة الاستشراقية، والمرتمين في أحضان الغرب، مما يدل على أن جهود المستشرقين لم تذهب عبثا، فهذا كاتب عربي يقول: إن القرآن لم يذكر عدد الصلوات وميقاتها، وللمسلم أن يصلي متى شاء، وله أن يختصر عدد الركعات. وهذا الرأي لم يقله بروكلمان الحاقد على الإسلام والرسول، وذهب الأمر بمراد هوفمان إلى نقد هذا الكاتب العربي اللسان الذي ينتسب إلى الإسلام بالجغرافيا، وبيان الخلل في كلامه. يرى هوفمان، وهو المستشرق الذي اعتنق الديانة الإسلامية، وجرد قلمه للدفاع عن الإسلام:

رؤية هذا الكاتب العربي تعكس (كما قرأه محاوره مراد هوفمان) تجربة شخصية لا تخفي الإعجاب بالنمط الفرنسي المقصي للدين، وهي تتأسس على أحكام هدامة تقوم على التعميم والانفعال، لاسيما في ما يخص النظرة إلى المؤسسة الدينية، والهجوم على الشكلانية الشعائرية في الإسلام، وكأنها لا تتساوق مع الروحانية، أو أن أي دين يمكن أن يزدهر بدونها، بل إنه راديكالي واضح في إقصائه مقادير كبيرة من القانون الإسلامي؛ لأنه لا يميز بين العقيدة والعبادة والمعاملات. ويتابع هوفمان ملاحظته على مقاربة هذا الكاتب، فبعد أن همش أركان الإسلام والفقه الإسلامي، وحكم على السنة كلها بالتلاشي، يتقدم بكلام ولائي كاذب للواقع الحالي السائد ليصل إلى «أن الإسلام لن يخسر شيئا إذا ما تخلص من عقلية الحلال والحرام». ويرجع هوفمان رؤية هذا الكاتب إلى الاعتقاد بحتمية التطور على نمط حركة التنوير والماركسية، وكأن الإنسان وتحيراته الغيبية تغيرت تغيرا جوهريا على مدى الأربعة آلاف عام الماضية. و يسأل هوفمان هذا الكاتب في الخاتمة أن: ما تدعو إليه من قيم ونظم كونية بمقدور أي دين أو فكر إيديولوجي أن يضطلع به، فلماذا نرتبك في شأن قيام الإسلام بذلك؟

في المقابل يرى مراد هوفمان في مقاربته أن الإسلام ليس إيديولوجية بل دين، فمصيره يعتمد إلى حد كبير على مستوى التدين واتجاهاته إجمالاً، ثم يعرض مسار العلم والدين في الغرب الذي أقصي في القرن العشرين، وتحوّل إلى إيديولوجية، ثم آل الأمر إلى الاعتراف بالدين وربطه بالعلم. كما يقول إنشتاين: «العلم أعرج من دون دين» .

ووصل كبار فلاسفة الحداثة إلى رؤية صوفية بفضل النتائج التي توصلوا إليها عقليا، ونهضة الدين لا تفاجئ إلا أولئك الذين يؤمنون بالحداثة على طريقة أسطورية وثنية جديدة، هذه العودة للدين إلى عالم العقل المعاصر ستجعل الإسلام أكثر الأديان انتفاعا من هذه الفرصة التي أتاحها القرن الحادي والعشرون، ولو بسبب عوامل إضافية، أهمها وسائل الاتصال. أما العوامل المؤثرة في مستقبل الإسلام فيراها مراد هوفمان مرتبطة بتطور التعليم وتكيف التربية في العالم الإسلامي مع المعايير التعليمية الإجمالية، والعودة إلى المفهوم الشامل للإسلام، وتقديمه على أنه قادر على حل مشكلات الفرد والإشكالات العالمية، فقد قلص الدين على أيدي النخب التي قادت العالم الإسلامي بعد الاستعمار إلى مجرد أخلاقية فردية خاصة، وأصبح طيعاً لأغراض سياسية محددة (عبد الرحمان حللي، موقع مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر للدراسات والبحوث)

عشنا ورأينا مستشرقا يدافع عن الإسلام، ويفحم كاتبا عربيا يريد أن يجرد الإسلام من تاجه، وهو الأحكام الشرعية، وخاصة الحلال والحرام. لقد تغيرت الأدوار: أصبح المستشرق عالما إسلاميا، والكاتب العربي مستشرقا. يا للسخرية! وبما أن الوحي هو العمود الفقري للإسلام، وبدونه يصبح القرآن من وضع محمد عليه الصلاة والسلام، فلننظر ماذا يقول أحد المستشرقين عن الوحي.

ظاهرة الوحي والنبوة عند نولدكه

يقول المستشرق الألماني نولدكه في كتابه:«تاريخ القرآن»: إن جوهر النبوة يقوم على تشبع روحي من فكرة دينية ما، تسيطر عليه أخيرا، فيتراءى له أنه مدفوع بقوة إلهية، ليبلغ من حوله من الناس تلك الفكرة على أنها حقيقة آتية من الله، ثم يقول: وقد كانت تعتريه (أي الرسول) في وحدته وغربته أثناء التحنث في الجبال والكهوف (يقصد غار حراء) حالات من الغيبوبة والاضطراب النفسي المرضي، تنزاح به إلى عالم الأحلام والرؤى، ولكن أعوزته القدرة على التجريد المنطقي إعوازا شبه تام، لهذا السبب اعتبر ما حرك نفسه أمرا موحى به منزلا من السماء، ولم يختبر اعتقاده إطلاقا، بل اتبع الغريزة، واعتبر هذه الأخيرة صوت الله الذي أتاه. وهذا ما ينتج الفهم الحر لظاهرة الوحي الذي يقوم عليه الإسلام.

هذا التفسير لظاهرة الوحي سار على منواله بعض المستشرقين. نذكر على سبيل المثال بلاشير، وقد رأينا أنه يعتبر الوحي حالة مرضية، ولا يهمنا كثيرا ما قاله نولدكه وغيره في خصوص الوحي؛ لأن ما توصلوا إليه لا معنى له، فالوحي ظاهرة لا تدركها العقول، وكل ما نقوله إن الرسول يتلقى القرآن عن الله عن طريق جبريل، أما الكيفية فلا تهمنا كثيرا، وإن كنا سنتعرض لاحقا إلى طرق الوحي.

يصل نولدكه بعد محاولته لتفسير الوحي إلى القول بأن : «الإسلام في جوهره يقتفي آثار المسيحية، أو بعبارة أخرى أن الإسلام هو الصبغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها»، كما اعتبر أن أفضل ما في الإسلام نشأ على منوال التعاليم اليهودية والمسيحية، ثم يقول: إن محمدا ﷺ حمل طويلا في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره، حتى أجبره الصوت الداخلي الحازم على أن يبرز لبني قومه. هذا ما يقوله كبير الدراويش نولدكه.

الحق، كما يقول سامي براهم: أننا لا نجد فيما ورد في كتاب جعيط: «تاريخية الدعوة المحمدية» خروجا عن هذا السياق النظري والمفهومي والمنهجي. يعني ما توخاه نولدكه في تفسيره للوحي، وفي تأثر الرسول بالموروث اليهودي والمسيحي.

وليس بغريب ما يقوله هذا الرجل. فعنده، وعند الغربيين بصفة عامة: كل ما أتى به غيرهم، وكان جيدا وممتازا يعود إلى الثقافة الأوروبية، فهي قطب الرحى، وخاصة ما أخذه الرسول من الديانتين اليهودية والمسيحيةحسب زعمهم، فكيف ستكون صورة محمد عليه الصلاة والسلام في كتابات الأستاذ جعيط؟

جعيط كاتبًا للسيرة النبوية

ولكن أية سيرة هذه التي يسير فيها على خطى المستشرقين، ويتبنى أطروحاتهم وتأويلاتهم المغرضة لأحداث السيرة. ألف مونتجمري واط القس الإنجليزي في السيرة النبوية كتابا خصص الجزء الأول لمحمد ﷺ في مكة، وخصص الجزء الثاني للرسول في المدينة، وجاء هشام جعيط ليحتذي هذا القس في كتابة السيرة، وربما يتجاوزه في التحامل على النبي، فرجل تذهب به الأوهام والظنون، ويشتط في التأويل إلى درجة لا يمكن أن يقبلها عقل سوي، اسمعوا ماذا يقول يا عباد الله: تعلم الرسول لغات في مكة، ومنها اللغة السريانية. لماذا حسب رأيكم؟ يقول لك هذا الكاتب: ليستطيع، أي الرسول، أن يتمكن من الدراسة اللاهوتية على يد قساوسة في سوريا. ثم يقول: وقد يكون النبي استقر بالشام مدة تطول أو تقصر، وتطول أكثر مما تقصر. لم يقل لنا كم من سنة أو من شهر؟ وهل وجد ملفه المدرسي أو الجامعي؟ ذلك أن القرآن مفعم (حسب زعمه) بمعرفة دقيقة للتراث المسيحي والتراث اليهودي، والمسيحي أكثر من اليهودي.

ذكرني هذا الهراء بما قاله الطبيب الإنجليزي وليام كامبل الذي ألف كتابا يرد فيه على الجراح الفرنسي موريس بوكاي مؤلف كتاب «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» وعنوان كتاب كامبل: «القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم»، وهو قس انجليزي أيضا يرد على كتاب موريس بوكاي، وعلى الدكتور البشير التركي رحمه الله، يقول :إن هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: 53] أخذها من بحار سوري عندما ذهب مع عمه إلى الشام، أي أنه ترك عمه وتجارته، وذهب يتنزه على شاطئ البحر، ولم يقل لنا هل شارك ذلك البحار في صيد السمك.

وقَبِل جعيط نظريات المستشرقين التي تدعي كذبا وبهتانا أن الرسول تأثر بالتراث المسيحي تأثرا عميقا، وقال : إن هذا التأثير حدث من محمد ﷺ ببراعة فائقة، ثم نكص على أعقابه، وقال: إن التأثير المباشر السوري يدخل في مجال التخمينات والافتراضات، وليس لنا أي شاهد على ذلك، معنى ذلك أنه لا يقبل إلا التأثير السوري غير المباشر، كما نقول في الأدب : إن الشابي تأثر بالحركة الرومانسية بصورة غير مباشرة، أي من خلال الترجمات عن الأدب الفرنسي.

الرسول (حسب رأيه) أخذ القرآن أو نصيبا من القرآن من غلام كانت صناعته الحدادة علَّم الرسولَ القرآنَ وترجم له التراث المسيحي، هذا التراث الذي لا يمكن لصانع الحدادة أن يستوعب ما فيه من طلاسم وأحاجٍ ومصطلحات لا يقدر على فهمها وترجمتها إلا أكابر اللاهوتيين.

لعل السيد جعيط تخيل، وهو الذي يدعي أنه يعرف كيف كان يتكلم الناس في عهد البعثة وصيغ التعبير والقوالب اللفظية (كما جاء في كتابه: «الفتنة»)، لعله يعتقد في وجود كلية تعلم اللغات التي كتبت بها الأديان السابقة للإسلام، ومنها السريانية، وكان الأستاذ المحاضر بها هو الدكتور جبر غلام الفاكه بن المغيرة، والدكتور بلعام مدرس اللغة العبرية، وعميدها هو ورقة بن نوفل، وكان ورقة ينوي أن يجلب أساتذة زائرين إلى مكة لإلقاء دروس في اللغات الهند أوروبية، ولما أعلن محمد ﷺ للملأ أنه نبي مرسل أسرع الوليد بن المغيرة صحبة أبي جهل وشيبة بن ربيعة، ووضعوا شماعة على باب هذه الكلية التي أصبحت تخرج الأنبياء، بفضل جهود هؤلاء الغلمان الذين يعيشون في أطراف مكة، ربما تصور هذا، ولعله سيخرج علينا غدا بطلعة جديدة (أعني في كتابه المنتظر عن الرسول في المدينة) يقول فيها، وما أسهل أن يقول: إن النبي أسس جامعة بالمدينة لتكوين كوادر لتسيير دواليب دولته الجديدة، وبسرعة فائقة تخرج منها عمر بن الخطاب وعينه وزيرا للعدل، وعين علي بن أبي طالب وزيرا للدفاع، وعبد الرحمان بن عوف وزيرا للتجارة، وزيد بن ثابت وزيرا للتعليم، وعثمان بن عفان وزيرا للمالية، وأبا بكر الصديق وزير للداخلية، ولا تعوزه الحجج في أن يقول مثل هذا وذلك بالاعتماد على العلوم الجديدة التي ساهمت في فهم التاريخ، ولم يحلم بكشوفها أرسطو وابن خلدون وحتى ليفي ستروس، الذي بقي ينتظرها مدة قرن أو أكثر، ولم تأت...

البداية .. نقد كتب السيرة

يرى الأستاذ جعيط أن سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام وغيرهما «لا تعطي إجابات علمية دقيقة نظرا لتأخر تدوين هذه السيرة، ولغلبة النزعة الوعظية عليها، أما الكتابات الحديثة فأغلبها لا يرقى إلى ما كتبه القدامى من حيث القيمة العلمية، واستثنى كتاب محمد ﷺ لهيكل، واعتبره آخر الكتابات المحترمة».

ويبدو أنه لم يطلع على كتاب الدكتور جواد علي في السيرة النبوية، ورغم صغر حجمه، واقتصاره على سيرة الرسول في مكة، فإنه كتاب علمي، يناقش ويمحص ويستنتج، وبصورة عامة كان محايدا في تحريره لهذا الكتاب، ولم ينحز إلا للعلم والحقيقة، وقس على ذلك كتاب «دراسة في السيرة» للدكتور عماد الدين خليل، الذي طبع عدة مرات، فهو مثله من حيث الدقة العلمية ومناقشة الآراء، مهما كان مصدرها، وكلاهما أرقى وأهم من كتاب هيكل حسب رأيي.

كتاب السيرة لابن إسحاق وابن هشام وعظي أو تمجيدي لا يهم (لم يقدم السيد جعيط نماذج للتمجيد والوعظ). وكيف لا يكون كذلك، وعنده أن ما كتب عن محمد ﷺ حق لا يرقى إليه الشك، وإذا شك في خبر نبه إليه بطرق مختلفة. لم يعتمد ابن إسحاق في كتابه على الوثائق، أو على المصادر الشفوية فقط، وإنما وجد الناس يتعاملون مع نبيهم كما لو كان حيا بينهم، فالعبادات والسلوك الذي رباهم عليه هو من باب الأخبار المتواترة التي لا يشك فيها إلا مكابر أو معاند، وما أكثر المكابرين والمعاندين هذه الأيام، وقد يكون ابن إسحاق محترزا في ذكر إسلام هذا أو ذاك، قبل فتح مكة أو بعده، وهو أمر مستبعد، ولكن هذه أمور ثانوية، ولا معنى لها في مسار السيرة النبوية.

ولكن هشام جعيط يصر على رأيه، ولو كان مخالفا للمشهور والمعقول، المهم أن يخالف من أجل المخالفة لا غير، مما يذكرنا بالمثل الشعبي التونسي- الآتي: رجلان يسيران في الطريق بين البساتين والحقول، ومن بعيد شاهدا كتلا سوداء تتحرك، فقال أحدهما للآخر: إنها مجموعة من الغربان، وخالفه الآخر قائلا: بل هي مجموعة من العنزات، فقال الأول بكل ثقة: لا، إنها غربان، انظر. إنها تحجل في مشيتها. ولكن الثاني أصر على أنها عنزات ترتع، ولما اقتربا منها طارت الغربان، فقال الأول: ألم أقل لك إنها غربان، ونطق الثاني كما لم ينطق من قبل: لا، إنها عنزات ولو طارت. وحديثنا قياس، فالأستاذ جعيط كثيرا ما يتمسك برأيه، ولو كان خاطئا، وبصفة عامة لا يستند إلى دليل مقنع، كشأنه في اتهام ابن اسحق في كتابة السيرة النبوية حسب أهواء العباسيين. يقول إبراهيم عوض حول هذا الموضوع: والعجيب أن يتهم جعيط ابن إسحاق ويزعم أنه، لتشيعه وخضوعه لضغط العباسيين التي كتبت السيرة النبوية في عهدهم، قد أسند لبني هاشم، وخصوصا العباس دورا في حماية النبي أكبر كثيرا من الواقع تقربا إلى بني العباس (الدعوة المحمدية في مكة ص252). والواقع أن ابن إسحاق عالم فاضل لا ينزل إلى هذا المستوى الواطي الذي يحاول جعيط أن ينزله إليه، متجاهلا أن هناك علماء كراما لا يبيعون ضمائرهم، ولا يرضون أن يعيشوا أذنابا لبعض الجهات، كبعض الناس، وينعقوا، بما ينعق به هؤلاء، فلا معنى إذن للقول بأن تشيع ابن إسحاق المزعوم قد جعله يزيف التاريخ من أجل إرضاء العباسيين.

ثم لا ننس، والكلام لإبراهيم عوض، أن ابن إسحاق لم يسند حماية النبي إلى العباسيين، بل إلى أبي طالب، كما لا ينبغي أن يفوتنا ما كتبه في سيرته من أن أبا طالب قد مات على دين قومه، أفلو كان الرجل يكتب التاريخ كي يرضي بني هاشم أكان يميت شيخهم في عهد النبي كافرا بالدين الذي أتى به ابن أخيه. وقل مثل ذلك فيما كتبه عن أبي لهب، إذ كان يستطيع ما دامت الأمور سائبة إلى هذا الحد، وكان يمالئ الهاشميين، كما يزعم جعيط، أن يدخله في الإسلام. وماذا في ذلك؟ وما الذي كان سيكلفه في هذا أكثر من جرة قلم لا راحت ولا جاءت؟ ومن يا ترى يضره أن يقال : إن أبا لهب قد أسلم، وسوف يدخل الجنة؟ أما العباس، الذي ينتمي إليه العباسيون، فلن يسلم في سيرة ابن إسحاق إلا في فتح مكة، مثله في ذلك مثل أبي سفيان، فأي فضل له في هذا، بحيث يتخذه ابن إسحاق متقرَّبا إلى العباسيين؟ كذلك فما قاله ابن إسحاق في هذا الموضوع قد قاله عروة والزهري في كتابيهما من قبل في العصر الأموي.

ولكن الدكتور جعيط لم يلتفت إلى هذين الكتابين، أو لم يسمع بهما: أي «مغازي رسول الله ﷺ» لعروة بن الزبير (توفي 94 هـ) والمغازي النبوية لابن شهاب الزهري (توفي 124 هـ). والكتابان تم تحقيقهما تحقيقا علميا: الأول من قِبَل الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ونشر بالرياض 1401/ 1981 والثاني حققه الدكتور سهيل زكار طبع دار الفكر بدمشق 1401/ 1981. ولو عاد إلى «المغازي الأولى ومؤلفوها» للدكتور جوزاف هوروفيتس (ترجمه حسين نصار، ونُشِر بمصر 1399/ 1949) لوجد أن الكتابة في السيرة قد سبقت ابن إسحاق وابن هشام، ولعلم أن هذه الرسائل أو الكتب أخذها أبناء الصحابة عن آبائهم وأقاربهم وغيرهم، ثم أقبلوا على تقييدها بعد أن سمعوها، حبا في أخبار رسول الله، وحفظا لها من النسيان، ولو كان طالبا وغفل عن ذكر هذه المصادر والمراجع الأساسية في بحثه لحاسبته لجنة الامتحان حسابا عسيرا.

يقول جعيط :إن السيرة النبوية كتبت على منوال الأناجيل الخمسة بما فيها المنحولة، وهو يجهل أو يتجاهل أن الكتابة في السيرة، كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل، مؤسس مجلة «فصول» النقدية، ومؤلف كتاب «المكونات الأولى للثقافة العربية» هي امتداد لما كان سائدا في العصر الجاهلي، الذي عرف الحديث عن السير، سير الملوك، وسير الأبطال، وسير البارزين بعامة من الناس، رجالا ونساء، كما عرف فيه الناس أخبار حروبهم ووقائعهم، وكانوا يتخذون من ذلك مادة الحديث في أسمارهم، ولكنهم في الغالب إنما يتداولون هذه السير والأخبار فيما بينهم بطريق الرواية الشفوية، ومن ثم كانت هذه المادة القولية في ذلك العصر متاحة لكل من أنس في نفسه القدرة على استيعابهاحفظا ورواية، ومن ثم لم توضع فيها الكتب، كما لم يعرف لها مؤلفون. وإذن (يقول المرحوم عز الدين إسماعيل) فالحديث عن سير الملوك وأخبار الحروب قديم ومعروف قبل الإسلام، ولكن التأليف في السيرة النبوية وغزوات الرسول، ثم في سير الصحابة وغزواتهم إنما نشأ إسلاميا صرفا، ومن ثم فإنه يمكننا القول إن السير والمغازي هي بمعنى من المعاني امتداد، ولكن في اتجاه جديد لفن القصص العربي، فلقد كانت السيرة النبوية في الأصل مجموعة من الأخبار والروايات المتفرقة التي رواها الصحابة والتابعون، والتي تناقلها الناس فيما بينهم، يلتمسون فيها التعرف على النموذج الإنساني العظيم، وعلى شواهد النبوة في حياة الرسول عليه السلام («مكونات... ص141ـ 142)

هذا الذي قاله الدكتور عز الدين إسماعيل أجمع عليه دارسو الحضارة العربية، فابن إسحاق، وحتى من سبقه من كتاب السيرة، يعتمدون هذا العنصر الثقافي الموروث، ونعني بذلك التصور العام للوقائع والأحداث حسب السنة الجارية في المجتمع العربي. مثال ذلك أن الغزوات التي قام بها الرسول قد جرت على منوال ما وقع عند العرب في «أيامهم». فمؤلف السيرة يؤلف بين الأحداث معتمدا على خياله، وعلى ما يجري حوله، مما تعارف عليه الناس وسلموا به.

أما أن ابن إسحاق كتب السيرة متأثرا بالأناجيل، وأنه كان يعرف اللغة السريانية فتلك شنشنة المستشرقين الذين يرجعون كل عمل متميز إلى الثقافة الأوروبية، وإلى الديانة النصرانية بالخصوص، وجاء الأستاذ جعيط ليثبت ادعاءهم، وكأن قولهم هو الفصل في كل قضية ومسألة.

شيء من التواضع يا أستاذ

يقول جعيط عن أفكاره: ما أكتبه هو فوق المستوى الفكري العربي الحالي. وهو يتصرف على أنه مالك الحقيقة التي يجهلها قومه؛لأنهم من دون المستوى الفكري له، وأنه سيلتزم منهجية صارمة في تعامله مع موضوعه، وبحثه متسلح بمعرفة دقيقة بالمصادر والمراجع، وبالتعاطف اللازم مع موضوعه، وبرحابة صدر وثقابة فكر. ولا نزيد على أن نقول: شاكر نفسه يقرئك السلام، وقد رأينا مدى معرفته للمصادر، وسنرى مدى فهمه لها.

أما رأيه في بعض المفكرين أمثال الجابري والتيزيني وجابر الأنصاري وعبد الله العروي فأعمالهم وتجاربهم في رأيه قليلة جدا بالنسبة إلى عالم إسلامي ينتمي إليه 280 مليون نسمة. ثانيا، والكلام للأستاذ جعيط، أغلب هذه التجارب التي تم ذكرها ليست أصيلة، فهي تأخذ عن الأوروبيين مناهجهم، فواحد ينهل من فوكو، والآخر من دريدا، وبالتالي فهم لا يمتلكون فكرا أصيلا حقيقيا. وإذا صح أن كثيرا من هؤلاء لهم صدى في العالم العربي، فذلك ليس لأنهم يستحقون هذا الصدى، بل لأن العالم العربي منحط إلى درجة أن لهؤلاء صدى طبعا باستثناء شخص واحد هو عبد الله العروي.

والأستاذ هشام جعيط من أين ينهل؟ ألم يقل إنه يطبق المناهج الغربية في كتاباته، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أنتروبولوجية ليفي ستروس، ونكرر القول بأن ما ورد في كتابته عن سيرة رسول الله ﷺ مستمد ومأخوذ ومنقول بحذافيره من كتب المستشرقين، ولم أر جديدا يذكر فيما كتب عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي لهجة لا تخلو من تزكية للنفس يقول: حاولنا في هذا الكتاب الاعتماد على المعرفة، واستنباط منهج عقلاني تفهمي لم نجده عند المسلمين القدامى من أهل السير والتاريخ والحديث، ولا عند المسلمين المعاصرين، وأكثر من ذلك أن المستشرقين على سعة إطلاعهم لم يأتوا ببحث يذكر في هذا الميدان، وتبقى دراساتهم هزيلة. ولكنه يعترف بعد ذلك أن هذا المنهج أخذ عن «فحول الفكر والتاريخ في الغرب». فكيف يجتمع الابتكار والأخذ عن الغير في آن واحد؟

واعتمادا على مقال الدكتور فريد العليبي: «قراءة نقدية في كتاب جعيط: الوحي والقرآن والنبوة» فإن الأستاذ جعيط تارة يعلن أنه مسلم يؤمن بالله والوحي والنبوة، وطورا يقول: إن قصة غار حراء قصة مختلقة، ويرفض الحديث المتعلق به، والذي جاء فيه جبريل للرسول محمد ﷺ لأول مرة، لأنه خبر مسند كما يزعم. وهو لا يرى (كما يقول رضوان السيد) أن الخبر التاريخي مقبول إذا جاء مسندا، وكأنه لا يعرف السند والعنعنة، ولا يفرق بين السند والمتن. هذا أولا، وثانيا يرفضه لأنه يشبه خبر التوراة عن صراع يعقوب مع إيل، أو يهوه (ما دام الرسول قد أخذ القرآن عن التوراة، فلماذا يرفض هنا هذا الأخذ؟). فالنبي محمد ﷺ، كما نبه الدكتور رضوان السيد، تصارع مع جبريل عندما قال له: اقرأ، فأجابه ما أنا بقارئ مرتين أو ثلاثا حسب الروايات، وهذا (حسب رأيه) مشعر بأن النبي ﷺ أرغم على تقبل الوحي، وكان يعاني من ذلك شدة، والمشهدان في سورة «التكوير» و«النجم» لا يدلان على ذلك. ويرى رضوان السيد أن الشبه بين الحديث والتوراة غير ثابت، لأن في التوراة كان «يهو»، وهنا جبريل عليه السلام، ثم إن معاناة النبي والكلام للأستاذ السيد ثابتة بالقرآن: «يا أيها المدثر» و«يأيها المزمل» مثلا، وفي سورة «المزمل» بالذات هناك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾ [المزمل].

ثم تساءل الدكتور السيد: ثم من قال : إن العناء الذي تصفه الأحاديث في تلقي الوحي ما كان مصحوبا بسعادة، نتيجة الإحساس بالقرب من الجلال الإلهي، وهذا الجانب تؤكده الأحاديث والمرويات، وضرب لذلك مثالا، وهو سورة «الضحى». قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى]. ذلك أن النبي شعر بقلق شديد عندما فتر الوحي (بين ستة أشهر وثلاث سنوات) إلى أن نزلت عليه سورة «الضحى».

وينكر جميع المعجزات مثل الإسراء. أن ينكر جميع المعجزات، فهذا من حقه، باستثناء القرآن، وهو نفسه يقر بالتناقض في تفكيره عندما يقول: إن تفكيرنا سيتميز بنقصانه وتناقضاته، فلا يتضمن ما من شأنه أن يشبه التأكيد الذي لا يشوبه الغموض، ولا يقوم بنتائجه الإيجابية، بل بتشعب أطواره، ونحن نحب منه الوضوح والثبات على الرأي الذي يتوصل إليه، ولو كان فطيرا.

يقول من جهة : إن لب الإسلام هو الدين، ولم يكن النبي يصبو إلى السياسة والتسلط، والوحي والقرآن والنبوة هي أصل كل شيء، ثم يقول من جهة أخرى: أما الإسلام المحمدي (؟)، وقد جاء في فترة عمت المسيحية فيها على المشرق برعاية الدولة، وكذلك المزدكية في إيران برعاية الدولة أيضا، قد كان مدينا بنجاحه الفوري تقريبا لتهميش الجزيرة العربية، ولغياب الدولة القمعية بالضرورة، لكن أساسا لتكوين جماعة مسلحة، فنواة دولة، فالسياسة بكل ما تعنيه من دبلوماسية وسلطة وحرب، فمصالحه، هي التي أكسبته النجاح والاعتراف به في الحجاز، فالرسول محمد ﷺ تارة هو نبي، ولا علاقة له بالسياسة، وطورا وجد فراغا سياسيا في الجزيرة فصادفه النجاح السياسي، ونقول نحن: لا ضير على النبي في آخر الأمر أن يجمع بين الأمرين، فهو نبي وبشر، وقيامه بالأمور السياسية لا ينقص من منزلته باعتباره رسولا إلى الناس أجمعين.

ويقول جعيط :إنه التزم في دراساته أن يضع قناعاته العقدية بين قوسين، وهذا يذكرنا بما كان يقوله العالم الفرنسي- كلود برنار: عندما أدخل المخبر أترك قناعاتي في حجرة الملابس، هذا في العلوم البحتة، أما في العلوم الإنسانية، وفي علم التاريخ بالذات، فيصعب جدا أن يتملص الإنسان من قناعاته الدينية، إلا إذا كان لم يلامس الإيمان وجدانه، ويمتزج بمشاعره.

ومناقشة المسلمات ما الغاية منها؟ هل سنزداد إيمانا أو شكا أو إنكارا أو فهما؟ لست أدري ما المقصود منها، فالمسلمات عادة تقبل ولا تناقش، فهي بديهية كواحد مع واحد يساوي اثنين، ومن المسلمات في الدين أن القرآن أوحاه الله لنبيه محمد ﷺ.

طرق الوحي سنراها فيما يأتي، أما إذا أردت معرفة كنهه، فمحاولتك ستكون فاشلة بدون ريب، ولو أحضرنا عقل مليون سقراط ومليون أرسطو ومليون أفلاطون. ولعل من يناقش المسلمات يريد هدمها وإنكارها والإطاحة به. هذا ممكن مع هؤلاء الدين يفتقدون، كما أشرنا، إلى التكوين الديني، وبدا لهم أن يتلاعبوا بدين القوم.

وهذا الذي كتبه عن الإسلام، وخاصة في مجال السيرة، هو (كما يقول) نتيجة عشرات السنين من البحث والدراسة وفق مناهج علمية صارمة، وأن ما توصل إليه هو حقائق تنشر لأول مرة. ويقول عن كتابه: «تاريخية الدعوة المحمدية» (؟): إنه يتناول الحقائق الدينية بالوصف والتحليل، والبحث في التأثيرات والتطورات، ويضعها في لحظتها التاريخية من دون الالتزام بالمعطى الإيماني.

أما أنها حقائق، فهذا فيه نظر، فمعرفة الرسول للغة السريانية هذه حقيقة؟ أتدري ما معنى الحقيقة في اللغة العربية؟ إنها الشيء الثابت يقينا، والناس يقبلونها بالبديهة، كأن تقول: الماء يتكون من ذرة أوكسجين، وذريتين من الهيدروجين. ثم سفر الرسول إلى الشام لتلقي العلم عن النصارى، وبقائه مدة طويلة في هذه البلاد، هل هو حقيق؟ هل وجدت دفتره المدرسي في إحدى الكنائس الشامية؟ وصدقني فإن ما توصلت إليه بعد عشرات السنين قرأتَ أغلبه، إن لم يكن حرفيا، في كتب المستشرقين، وخاصة الغلاة منهم. والذين يقولون : إن محمدا ﷺ ثار على الكنيسة (؟) لأنها لم تمنحه رتبة الأسقفية، هل هذه حقيقة؟

الأستاذ جعيط يقول: لو لم يكن فيما توصل إليه جديد ما كان لينشر هذا الكتاب. يقصد «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة». وأي جديد توصل إليه؟ الجديد هو أن الرسول عاش خمسين سنة، وأن اسمه قثم، وأنه تعلم السريانية في مكة، ثم رحل إلى الشام لتلقي العلم عن قساوسة النصارى، وغير ذلك من الأباطيل والأوهام التي تلقاها عن نولدكه وشبرنجر وغيرهما، وكأنه يكتب بإيعاز من غلاة المستشرقين عن محمد ﷺ. هذه هي نتائج البحث التي استغرقت عشرات السنين، وألقاها على الطلبة بالجامعة التونسية. ولحسن الحظ لم يستمع إلى ترهاته سوى القليل، وخاصة من النساء الذين يسهل جلبهم إلى صفه.

ترى لو بقي سنوات أخرى يبحث ويدرس، فما هي النتائج التي سيتوصل إليها؟ الأمر سهل سيقول: تعلم النبي السنسكريتية في الهند، والفهلوية في فارس، واللاتينية في روما، وإذا واصل البحث مدة أخرى سيتوصل إلى أن الرسول تعلم الفرنسية والألمانية والإنجليزية، والتقى ببولس السادس في الفاتيكان. كل شيء ممكن عند هؤلاء الناس.

والحق أنني لم أفهم قولك: «دون الإلتزام بالمعطى الإيماني». فمن ينبش في مزابل المستشرقين، ويؤيد أقوالهم في رسول الله، وينشره على الناس يبقى له إيمان؟ ثم هل نحن في مخبر كيميائي أو فيزيائي، كما أشرت، فنتجرد عن كل النظريات السابقة، وعن الإيمان خاصة؟ أم نحن في ميدان عقدي، يمتزج فيه العقل والقلب امتزاجا كليا، ولا يمكن الفصل بينهما، فإما مع المعطى الديني، وأما ضده؟ والإنسان حر في اختياره، فلماذا الدوران والتلاعب بالألفاظ يا أستاذ؟ فهل هذا ما وعدت بأن يكون كتابك: «القرآن والوحي والنبوة» وما سيتبعه كتابا علميا، وليس بالدراسة الفلسفية؟ سنرى لاحقا مدى الإيفاء بهذا الوعد.

الشيء من مأتاه لا يستغرب

قلنا قبل قليل: لم يسر على منواله من طلبته سوى القليل، ومن سنتحدث عنها فيما يأتي خريجة المدرسة الجعيطية، أشرف على تخريجها، ومنحها شهادة علمية معتبرة، لم لا؟ وهذه الكويتبة تتحدث عن الرسول والإسلام، كما يتحدث أستاذها جعيط،الحافر على الحافر، ولكنها تفوقت عليه من حيث تصورها لأمور لم يقع إلا في خيالها المريض. وبالمناسبة فقد نقلت ما كتبته عن خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وورقة من كتاب «قس ونبي» لقس مسيحي اسمه المستعار أبو موسى الحريري (واسمه الحقيقي ج. قري) ادعى أن الرسول تخرج، أي نبيا، على يدي ورقة بن نوفل، وخديجة رضي الله عنها .

اسمعوا ماذا تقول: إن خديجة كانت فاعلة في نشأة النبوة، ولا أقول: الإسلام ، بمعنى أن دار خديجة كانت بمثابة صالون ثقافي نشأ فيه فكر محمد الديني، وليس لوحده، إنما بحضور عدد من الشباب المثقف، وأعني بذلك عثمان بن عفان وأبو بكر الصديق، وأخت خديجة التي كانت تقرأ (الكتب) وورقة ابن نوفل ابن عم خديجة.

وتواصل فتقول: بصراحة لم أحصل مباشرة على معطيات مادية تتحدث عن هذا الصالون، لكنه استنتاج توصلت إليه من جمعي لبعض الأخبار المتفرقة هنا وهناك، وتأويلي لبعض المعطيات،

مثل طبيعة الأسئلة التي كانت تطرحها خديجة على زوجها محمد، وهو يعاني مشاق ظهور النبوة. ثم تضيف قائلة: إنني مقتنعة أن خديجة امرأة مثقفة دينيا، وأن ثقافتها مسيحية على الرغم من صمت المصادر عن ذكر هذا المعطى. وقد تبينت ذلك من خلال حركة قامت بها خديجة لما جاءها محمد ﷺ وهو يرتعش من هول ما سمعه من جبريل، إذ احتضنته ووضعته على فخذها، وهذه الحركة كثيرا ما نلاحظها في الصور الملصقة بجدران الكنائس، وقد لاحظت هذه الصورة على أحد جدران كنيسة الميريين بسوريا، ومضمون هذه الصورة زوجة تحمل بين ذراعيها زوجها، كما تحمل الأم طفلها، ومن هنا جاءت المقارنة، ولم أعتبر هذه الحركة التي قامت بها خديجة تجاه زوجها لحظة البعث حركة عفوية، بل هي حركة ذات معنى، وعادة من عادات المسيحيين.

السؤال: إذا كان هذا الكتاب جزءا من أطروحة لنيل شهادة علمية، فكيف يقبل أعضاء لجنة الامتحان هذا الهراء الذي ينافي المنهج العلمي، بقطع النظر عن الناحية الدينية؟ ونستثني من أعضاء لجنة الامتحان الأستاذ جعيط بالطبع لأنه موافق لما جاء في أطروحة هذه الأديبة، ولا أريد أن أعلق على الكلام التافه، وأترك التعليق للأستاذ نوفل سلامة لأن ما أقوله ذكرته في هذه السطور، ولكني أقول: من الغريب أن يكون المتقدم ببحث قصد الحصول على شهادة علمية يكون صورة طبق الأصل للأستاذ المشرف، وأسأل: أين شخصية الطالب الذي سيصبح مدرسا، ويعلم أبناء المسلمين؟ وأين الإضافة؟ وأين الاستقلال بالرأي؟ على كل هذه قضية أخرى. وليسمح لي الأستاذ نوفل سلامه أن أنقل جزءا من تعليقه على كتاب هذه المرأة. يقول لا فض فوه:

ماذا يعني هذا الكلام؟ وما هو القصد من ورائه؟ وماهى النية من طرحه؟

في الحقيقة فإن المتمعن في هذا الخطاب الذي تطرحه هذه القصاصة يجد أنه يؤسس لفكر خطير يجعل للإسلام جذورا مسيحية، وتأثيرات نصرانية، كان لها الفضل الكبير في الوحي القرآني، وكانت مصدر الفكر الذي يحمله الرسول محمد ﷺ لعرب قريش، فالدين الإسلامي وفق هذه النظرة هو ليس بدين جديد جاء ليغير الواقع والعقلية الجاهلية، وإنما هو في الأصل امتداد للمسيحية وأفكارها، وتصوراته مستمدة منها، فالرسول محمد وفق هذه النظرة لم يكن أميا، ولا يعرف القراءة كما نعتقده وأخبر به القرآن صراحة، وإنما هو رجل مثقف قد تعلم فى الصالون الفكري لخديجة بنت خويلد، وشرب ونهل من كتب ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان على دين المسيح، وهو قد اطلع على ما فى المسيحية من تصورات حول الكون والوجود والإنسان ، وخبر الغيب، وكل الماورئيات من خلال كتب الإنجيل المعربة التي يزوده بها ورقة بن نوفل، ومن خلال هذا الصالون الذي كانت تدور فيه نقاشات حول الديانة المسيحية، ومن خلال ما كان لخديجة من ثقافة وفكر مسيحي، فقد أصبح الرسول محد ﷺ عارفا وعالما بالغيب، وكل التصورات عن الجنة والنار والجزاء والعقاب، وبالتالي فإن ادعاء أن الرسول كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة هو ادعاء باطل وغير علمي. إن هذا الخطاب الذي تتبناه هذه المرأة ينتهي حتما إلى نفي النبوة عن الرسول محمد ﷺ، ويجعل من الدين الإسلامي الذي جاء به، وتلقاه من خلال الوحي الإلهي عن طريق جبريل، دينا أصله وجذوره في المسيحية والنصرانية المعربة، ويؤدي إلى ترسيخ الاعتقاد في عدم صدق الرسول من أنه أوحي إليه، ومن أنه كان أميا، وأنه لا يعرف القراءة والكتابة، وأنه لم يطلع يوما على ما في الحضارات الأخرى والديانات السابقة من أفكار وفلسفات ومعتقدات، مما ينزع عنه صفة النبي والرسول الموحى إليه، والمختار من قبل الله رحمة للعالمين، ومبلغا كلامه للناس الذي تلقاه عن طريق جبريل، لا ما تعلمه في صالون زوجه خديجة النصرانية، كما تدعي هذه الكاتبة.

والغريب فى أمر هذه القصاصة، وهي المنتمية إلى المدرسة العقلانية، وإحدى تلامذة الدكتور هشام جعيط كما تقول، والذي أشرف على رسالة الدكتوراه التي أنجزتها، والتي قامت بأبحاث عديدة في الفكر المسيحي للتعرف على الجذور العربية لهذه الديانة، وتأثيرها فى الدين الإسلامي، قد قالت ما قالته بدون أن تقدم دليلا نقليا وعلميا واحدا، ولم تعثر على برهان موثق على كل ما تقوله، وإنما كل ما لديها،

وكل ما أوصلها إليه فكرها العقلاني الموضوعي، أن خديجة كانت نصرانية، لأن ابن عمها كان مسيحيا؛ ولأن الرسول لما نزل عليه الوحي، ودخل بيته حضنته بطريقة توحي بأنها مسيحية، كما تحضن المرأة المصورة على جدران إحدى الكنائس زوجها، فهل هذا منطق معقول؟ وهل هذا دليل علمي على أن خديجة كانت على دين المسيح؟ أبهذا التفكير التخمينى الذي لا يستند على أي دليل نقدم التصورات والأفكار؟ أيعقل أن يصدر من باحثة متخرجة من مدرسة هشام جعيط العقلانية مثل هذا الكلام غير العلمي وغير الموثق؟ فخديجة بنت خويلد لم يذكر أي مصدر من المصادر التاريخية الثابتة والموثوق بها ولا أي مرجع من المراجع التي أرخت لحياتها وتعرضت لسيرتها أنها كانت مسيحية، وكل ما عرف عنها أنها كانت لا تشارك قومها ديانتهم الوثنية، وكانت صاحبة عقل راجح، وكانت عفيفة ولم تنغمس فيما انغمست فيه نساء الجاهلية من أجل ذلك لقبت بـ«الطاهرة».

في الحقيقة فإن المرء ليعجب كل العجب من مثل هذا الكلام الصادر عن باحثة متخرجة من جامعة علمية، وإن العجب يزداد أكثر حينما نقرأ قولها إن لخديجة النصرانية صالونا فكريا كان يدور فيه حوار حول الدين المسيحي، ويحضره إلى جانب الرسول ابن عمها ورقة ابن نوفل، فمن أين جاءت بهذا الكلام؟ وفي أي مصدر تاريخي وجدت دليلا على وجوده حقيقة؟ إنها تقول : إن هذا الصالون هو من استنتاجها هي، توصلت إليه من خلال جمعها لبعض الأخبار المتفرقة، وإنها لم تحصل على معطيات مباشرة حوله. أبهذا المنهج في التفكير وبهذه الطريقة في التحليل نتحدث عن الإسلام وأعلامه، وما دار من أحداث مؤثرة قبل نزول الوحي، وبعثة الرسول محمد ﷺ ؟

إن القضية التي أثارتها هذه الكاتبة هي قضية خطيرة، نجد لها أثارا في كتابات المسيحيين الذين يحاولون جاهدين إثبات مسيحية خديجة، وأن هناك علاقة متينة بين الرسول وابن عمها ورقة بن نوفل، كما نجد هذا الفكروهذا التصور عند الدكتور هشام جعيط فى الجزء الثاني من كتابه: «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة»، الذي حاول من خلاله إثبات وجود جذور مسيحية عربية أثناء بعثة الرسول، وأن هناك علاقة بين الإسلام الدين الجديد، وبين الفكر المسيحي المتمثل في الراهب ورقة بن نوفل، وما يترتب على ذلك من تأثير واضح للعقيدة المسيحية في الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ (انتهى كلام الأستاذ سلامة نقلناه على طوله؛لأنه أصاب كبد الحقيقة).

إن في بني عمك رماحا، ورماحهم مسلطة على كل معتد أثيم. وهذا نوفل سلامة واحد من هذه الرماح التي لا تسكت عندما ترى الخروج عن جادة الصواب، وسلامة كاتب تقدمي ما في ذلك شك، يظهر ذلك من خلال ما يكتب في جريدة «الصريح» لصاحبها الكاتب والصحفي اللامع صالح الحاجة.

وقد وجدت هذه الكاتبة ترحيبا كبيرا في المواقع التنصيرية والتبشيرية، ونوه بأعمالها وبحوثها أحد المطارنة فقال: لأول مرة يكتب باحث عربي مسلم في موضوع المسيحية العربية بهذا المستوى العالي من الروح الأكاديمية، والدقة العلمية والتاريخية، وبروح موضوعية يندر وجودها في أمور تخص التاريخ، أو المعتقد الديني، لا سيما في الشرق. ويقول أيضا: لايمكن إلا أن نُثني على أسلوبها العلمي الدقيق، و جدّيتها و تجرّدها في تناولها هذا المبحث التاريخي.

وكيف لا تكون كما قال، والحال أنها قدمت خدمات جليلة للمسيحية والمسيحيين على حساب الإسلام، هذا الذي يمتطي صهوته كل من هب ودب من حثالة القوم؟ ولكن الله متم نوره ولو كره الكارهون والحاقدون.

هذه واحدة من خريجات النهج الجعيطي، وهو مثال على نجاح الاستشراق في البلاد العربية، فللمستشرقين الآن أن يطمئنوا على مسيرتهم، فقد آتت أكلها، فقد حمل لواء الاستشراق الكتاب العرب، في حين آذنت شمس الاستشراق في الغرب بالمغيب.

وسايره في نهجه بعض العلمانيين في نظرته للسيرة، وقد جاء في الأمثال:

إن الطيور على أشكالها تقع

اعتبر الأستاذ محمد الحداد، كتاب هشام جعيط: «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة)» حدثا استثنائيا غير مسبوق، التزم (كما يقول) فيه جعيط التزاما صارما وصادقا بمناهج البحث العلمي الحديث، ونوه بكتاب هيكل: «حياة محمد»، الذي ظهر في بداية القرن الماضي (ظهر سنة 1935 في طبعته الأولى، فأي بداية للقرن الماضي يا أستاذ؟) كما نوه، وهذا غريب وعجيب، بكتابَيْ مونتجمري واط: «محمد في مكة» ثم «محمد في المدينة»، فقد بلغ (كما يقول) الدرجة الأرقى في مجال دراسات السيرة النبويّة، أو لنقل: في سيرورة الانتقال من أدب السير إلى علميّة التاريخ، مع التسليم بما يتضمنه العمل التاريخي عامة، وهذا العمل تخصيصا، من نسبيّة في النتائج والاستنتاجات. هذا جميل.

السؤال الذي يطرح بعد هذا الإطراء لواط: هل درس هذا القس الإنجليزي حياة الرسول حبا في البحث العلمي؟ أو لغاية في نفس يعقوب؟ أم أن هؤلاء الذين يمدحون هذا القس لا يهمهم ما يقال عن الرسول ﷺ، وعندها يقال عنهم: ما لجرح بميت إيلام! تستطيع يا مستر واط أن تقول ما يعن لك عن الرسول والصحابة، فكل ما تقوله يضعه هذا الرهط من الحداثيين على الرأس والعين.

إن التعلق بالحداثة (وقد تجاوزها الغرب الذي يقلده هؤلاء العلمانيون) لا يعني دوس المقدسات، فحتى الغرب الذي يقلدونه يحترم الكتاب المقدس احتراما لا مزيد عليه، من هرم السلطة إلى عامة الناس.

ويوهمنا هذا الرجل بادعائه أن المستشرقين لم يكن قصدهم من دراسة السيرة الكيد للإسلام أو نبيّه كما يرى بعض المسلمين، ونسي أو تجاهل أن أغلب ما كتبوا عن الإسلام والرسول يقطر حقدا وضغينة (أنظر ما كتبه لامنس وجولدزيهر عن الإسلام، ومنذ عهد ليس بالبعيد، ساعد برنارد لويس، وهو الشيخ الهرم، رئيس أمريكا السابق على احتلال العراق سنة 2003) وأنهم يؤولون أحداث السيرة ووقائعها حسب أهوائهم، ومنهم المستر واط المنوه به، والذي سيحل كتاب جعيط محله حسب ما تقتضيه سنن التطور العلمي (كما يقول الأستاذ الحداد)، وهو يجهل أن ما جاء في كتاب جعيط المشار إليه نقل ونسخ عن القس واط وغيره من المستشرقين، ومنهم الحاقدون على الإسلام والرسول أمثال رايموند شارل وأندري ميكال وغيرهما من غلاة المستشرقين.

وأعاد السيد الحداد ما قاله جعيط في المقدمة بأنه سيضع قناعاته الدينية إن وجدت بين قوسين، يقول: وليس من دور المؤرخ أن يحاول نسف الإسلام، ولا أن يحاول إحياء مقاصده، إنما دوره أن يستنطق المصادر المتوفرة لديه ويعارض بين ما تحتويه من معلومات ومعطيات، ويمحّص منها ما هو الأقرب إلى تمثيل الحقيقة التاريخيّة.

فأي مصادر يستنطقها إذا كان يرفض كتب السيرة؟ وأي مصدر اعتمده في معرفة الرسول للغة السريانية؟ وأي وثيقة تتحدث عن اتصال النبي بقساوسة الشام، واستيعابه لما جاء في التراثين اليهودي والمسيحي؟ إنها تخمينات وشطحات فكرية، وخبطات عشوائية، بعيدة بعد السماء عن الأرض عن تمثيل الحقيقة التاريخية، واستخدامه للمنهج الفيلولوجي، لم يزده إلا بعدا عن حياة الرسول، وغاية ما في الأمر أنه اعتمد على الروايات الموضوعة والضعيفة، وجعل منها منطلقا للبحث والوصول إلى استنتاجات غير مقبولة وغير مقنعة بالمرة.

ولسنا ندري ماذا يقصد بقوله: إن العلم في المجتمعات الإسلامية ما يزال محاصرا من قوى عديدة منها القوى الدينية، فهل يرفض المسلمون العلم إذا كان مؤسسا على أسس سليمة؟ ومتى كان الإسلام يقف حائلا ضد العقل ومنجزاته؟ ومتى حاصر أولو الأمر إن قديما أو حديثا التقدم العلمي؟ نعم لا يسمح علماء الإسلام، وهم الآن في موقف ضعيف جدا، وأولو الأمر بالتعدي على المقدسات الدينية، والمقدسات الإسلامية التي تعتبر منطقة محظورة، ولكنْ أولو الأمر لا يتدخلون في القيام بالبحث العلمي، ولا في الاختيارت البحثية، فأين تبدو المحاصرة؟ لو ضرب لنا مثالا حتى نقتنع برأيه، ونقول له عند ذلك: أصبت. ولكن الرجل يلقي الكلام على عواهنه. وإذا كان الكثير مما يكتب حول الإسلام مثلا تمتزج فيه نتائج البحث الدقيق بالأفكار المسبقة للباحث كما يقول، فإن هذا الأمر ينطبق على السيرة النبوية عند جعيط، فقد افترض أمورا، وأراد البرهنة عليها من خلال السيرة كما يفعل المستشر-قون، فأي امتياز هذا يا صاح؟ وأين التزامه بالموضوعية؟ يقول : إن مصادر السيرة النبوية متوفرة إذا ما قارنّاها بالمصادر المتوفِّرة حول تأسيس أديان أخرى مثل المسيحيّة والبوذيّة، ولكن كتب السيرة عاجزة عن تقديم القدر الأدنى من المعلومات لإعادة كتابة السيرة النبويّة.

فالقضيّة في رأيه، أي جعيط، ليست قضيّة مصادر، وإنما القدرة على نقدها وتفحصها. لا شك أن القدرة على النقد تتمثل، عند جعيط ومن معه، في رفض إسم النبي محمد ﷺ، واستبداله بقثم، هذا الخبر المتهافت، والذي لا يرقى إلى درجة الصحيح، لافتقاده السند الذي يعول عليه في مثل هذه الأمور. ونقد المصادر يتمثل حسب هذا الرجل في سكوت المصادر، وقد وصفها بالثرية، بمعرفة الرسول باللغة السريانية، وتأثره بالموروث اليهودي والمسيحي. ويرى السيد الحداد أن جعيّط يؤكّد على أنّ القرآن يعكس واقع فترة تأسيس الإسلام، وليس مهمّا أن يكون حصل فيه بعض إسقاط أو إضافة أو تكرار، فذلك لا يعدو مواضع ثانويّة (هذه المواضع الثانوية هي هدم للقرآن كله، فالبناء إذا انهد ركن منه آل إلى السقوط والخراب)، لكن لا يمكن أن يكون قد حصل فيه تغيير كبير. وهو يشكّك في كونه قد كتب أوّلا على جذوع النخل وعظام الإبل، كما ورد في الروايات الإسلاميّة التقليديّة؛ لأنّ العرب كانوا يعرفون الرقّ والبردي (هل توجد وثيقة تشير إلى ذلك، أم هي مجرد تخمينات كالعادة؟) ويحسنون الكتابة.

القرآن يعكس واقع فترة تأسيس الإسلام، فإذا كان المقصود من هذا هو وصف الحياة الدينية التي تعتمد الأوثان والأصنام والدعوة إلى توحيد الله فهذا صحيح، وإذا كان المقصود هو تعنت المشركين، وصد معسكر التوحيد، فهذا صحيح أيضا. أما إذا كان القرآن خاصا بذلك العهد، ولا يتعداه إلى العصور الموالية فهذا مرفوض؛ لأن القرآن نص مرن يصلح لكل العصور، ومازال إلى اليوم يهز مشاعر المؤمنين، ويستفز وجدانهم، وما زال كما يقول المستشرق الفرنسي كارا دوفو : غضا طريا كأنه نزل بالأمس، ولا يمكن البتة اعتباره مصدرا لحياة الرسول، أو استمداد سيرته منه. صحيح أن هناك إشارات إلى وقائع السيرة، ولكنها جاءت سريعة، وغير كافية لمعرفة حياة النبي. والذين أرخوا لحياة الرسول من خلال القرآن فقط فشلت محاولاتهم. ويمكن معرفة هذه الكتب بالرجوع إلى «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ» للدكتور صلاح الدين المنجد رحمه الله.

وثمة مسألة تخص حياة الرسول بعد زواجه بخديجة حتى بلوغه سن الأربعين، أي سنة نزول الوحي عليه ﷺ، يقال عنها إنها فترة غامضة، والمصادر لا تمدنا بشيء حول هذه الفترة. ويعتقد المستشرقون، ومن يدور في فلكهم، أن الرسول قد تشبع بالموروث اليهودي والمسيحي في هذه الفترة، وقد يكون اتصل بقساوسة الشام، وأخذ عنهم الكثير من المسائل التي أوردها في القرآن. وهذا محض افتراء، فقد اشتغل الرسول في هذه الفترة كأي قرشي آخر بأسرته وتجارته، ولم يكن يتصور أنه سيكون نبيا، ولكن العناية الإلهية هي التي اختارته ليقوم بهذا الأمر. وقبيل هذا الاختيار كان يميل إلى العزلة والوحدة في غار حراء. يقول مونتغمري واط المنوه به: إن زيارة محمد (عليه الصلاة والسلام) لحراء، وهو جبل قريب من مكة، بصحبة عائلته (هو يريد الوحدة، فكيف يأخذ معه عائلته؟) أو بدونها، ليست مستحيلة. يمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف، ويمكن للتأثر اليهودي المسيحي، ولا سيما مثل الرهبان، أو تجربة شخصية لمحمد (لم يكن هو الوحيد الذي كان يتحنث في غار حراء، فحتي جده عبد المطلب كان يفعل ذلك) أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلوة والرغبة فيها (محمد في مكة ص81)

التأثير اليهودي المسيحي هو المعني بالأمر عند واط، أو هو بيت القصيد، كما يقال، وهكذا يقع تسريب بعض التأويلات التي لا أساس لها من الصحة. والدس في كتابات المستشرقين أمر طبيعي عندهم، وكيف لا يقول واط مثل هذه الإشارة، وهو ينطلق من مرجعية مسيحية ترى أن الإسلام ضرب من التنصير الخاص بالعرب؟ والهدف الأساس هو بث الحيرة والتردد لدى القارئ المسلم، فأين الحياد والموضوعية وعلمية التاريخ؟ لقد أوهمنا واط في المقدمة بأن الموضوعية ستكون أساس بحثه، ولكنه لم يعمل بما قال في ثنايا كتابه، الذي أثنى عليه الأستاذ الحداد.

وهناك مسألة أخرى ترى أن سيرة الرسول يكتنفها الغموض طيلة القرن الأول للهجرة، التي لم يصلنا منها شيء مكتوب كما يزعمون. والحق أن سيرة الرسول بما فيها غزواته وأحاديثه كانت تلقى من على المنابر، وتسمع في المجالس الخاصة والعامة، ويتحدث بها الصحابة لأبنائهم في البيوت، ومنهم من يقيد ما يسمع، ويبحث أيضا عن أخبار النبي وأحاديثه عند من لهم معرفة بهذه الأخبار. كان هذا قبل التدوين الذي أعلن عن افتتاحه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، فلما جاء عصر التدوين وجد العلماء سيرة الرسول وأحاديثه على كل لسان، ووجدت المادة مهيأة للتدوين، فقد كان أبناء الصحابة، وهم التابعون، واعين بأخبار الرسول، ومستوعبين لكل ما يهم حياته ﷺ، وأغلبهم من العلماء، مثل عروة بن الزبير، وعامر بن شراحيل، وأبان بن عثمان، ووهب بن منبه، ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم. وهكذا مرت السيرة بمراحل ثلاث: المرحلة الشفوية، ثم مرحلة التدوين الجزئي، والمرحلة الأخيرة هي التي قام فيها ابن إسحاق بتدوين السيرة، وهي مرحلة التأليف في أعلى مستوياته، فلا غموض ولا نقص في المصادر الخاصة بسيرة النبي كما يقول المغرضون والذين يصطادون في الماء العكر من المستشرقين وأتباعهم.

الشيء وضده

بعض المستشرقين، ولا نعمّم، يقولون الشيء عن الإسلام وضده، ويبدو أن الأستاذ جعيط أخذ عنهم هذه الطريقة الملتوية، فهو يقول: إن التأثير المباشر السوري يدخل في مجال التخمينات والافتراضات، وليس لنا أي شاهد على ذلك (ص174) ثم يتراجع فيقول: من الصعب تاريخيا نفي إطلاع الرسول عليه، يقصد الموروث اليهودي المسيحي. وقارن بين نص إنجيلي وبين القرآن، ثم استنتج هذا الاستنتاج الغريب: من دون المسيحية الشرقية السورية لم يكن ليظهر محمد، وإلا فلا نرى كمؤرخين حلا للإشكال. بالنسبة للمؤرخ الموضوعي لا يمكن الانفلات من إقرار هذا التأثير، وهو ليس بالتأثير السطحي، وإنما العميق والمستبطن بقوة، وإلا عاد محمد (عليه الصلاة والسلام) غير ممكن في بلده، وفي زمانه، ووجب على المؤرخ الإذعان والإقرار بألوهية القرآن مبدئيا ونهائيا، والتوقف عن كل بحث.

والرجل يرى أن القرآن مقدس، وقد أوحاه الله لنبيه، ويعيب على المستشرقين كيف لم يؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ، ولم يقدروه حق قدره، يقول: من خلال هذه النظرة لم يشعروا (يقصد المستشرقين) بسعة علم النبي ومقدرته الفذة في معرفة التراث الديني واللغات العبرية والسريانية واليونانية... فتارة القرآن مقدس وهو من عند الله، وطورا يرجع القرآن إلى سعة علم الرسول بالتراث الديني، فما سبب هذا التأرجح، وأي وجهة هو موليها؟ يثبت الشيء ثم ينفيه، ورأينا في الرياضيات، ونحن تلامذة صغار، أن علامة الطرح مع علامة الجمع تعني النفي، ثم هل من الواجب على المؤرخ أن يختلق إشكالا قبل الدخول في الموضوع الذي يروم البحث فيه؟ وأي إشكال هذا الذي اعترض الأستاذ جعيط، ولم يجد له حلا؟ وكيف له أن يبحث في مسألة يستحيل على العقل قبولها؟

إن هذا البحث هو من قبيل البذخ الفكري الذي لا فائدة منه، وهو بالتالي مضيعة للوقت، ومعاملة القرآن على أنه نص بشري غير ممكن. لماذا؟ لأن ما ورد فيه من أحكام وتشريع، ومن فهم عميق للإنسان من حيث طبيعته وسلوكه وغير ذلك، وكذا ما ورد فيه من حقائق علمية يستحيل على رجل عاش في القرن السابع للميلاد أن يأتي بمثلها، إلا إذا سايرنا ذلك المحاضر الجزائري، الذي لم تذكر المجلة الزيتونية اسمه (ولعله من أقارب أركون) والذي أنكر في محاضرته بمدينة ليون وجود الله، ثم قال: إن القرآن المعجز الذي جاء به محمد هو من عند نفسه، وأن لا إله ولا رسول ولا ملك ولا روح، وإنما محمد من فرط ذكائه اخترع الدين الإسلامي، وجعله صالحا لكل زمان ومكان، وأحاطه بسياج القوانين غير القابلة للإلغاء، وجاء بهذا القرآن المعجز، وتحدى البشر لكونه يعلم من نفسه أنه فوق البشرية، فلهذا تحدى الخلائق تحدي الواثق بنفسه أنه غالب، وعندما يقول محمد حسب زعمه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88] فمن أتى هذا الإعجاز والتحدي حسب دعواه؟

يرى أن محمدا ﷺ يعلم علم اليقين بأنه لو اجتمعت ملايين الفلاسفة، لكانوا منه بمثابة الصبي الرضيع من أكبر فيلسوف، فمن أين أتاه هذا التفوق، يقول: إن محمدا ﷺ شذت الطبيعة في خلقه من علة اقتران أبويه، لكونهما فيهما قابلية فوق السبرمان (أي الإنسان الأرقى) فجاء منهما محمد الخارق في تركيب جسمه، وفي عقله الخارق، وفي كل أحواله.

إذن فإن عبد الله وآمنه هما علة هذا الخرق لناموس الطبيعة، حيث جمعت المصادفة بينهما في بلد واحد وعصر واحد، مع أن الطبيعة لا تشذ بخلق واحد من أمثال عبد الله إلا في ملايين السنين، بل مرة واحدة في الوجود كله، كما يدعي هذا الرجل، وأما آمنة فالشذوذ بخلقها هو من غرائب الطبيعة، لكون آمنة عقلها يرجح على عقل مليون فيلسوف، وهذا محال أن تشذ به الطبيعة مرتين في الوجود.

لقد أثبت هذا المحاضر البربري، دون أن يدري، أن القرآن فوق طاقة البشر، وأن الزمان لا يجود بمثله إلا مرة واحدة، وبما أنه فوق علم البشرية كلها، فالقرآن أذن وحي من الله، ومحمد نبي ما في ذلك شك.

محمد ﷺ كان ابن امرأة عادية تأكل القديد، كما قال ﷺ. وهو رجل كرجالات عصره، ولكنه كان رسولا. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:110] فالفرق بيننا وبينه هو الوحي، ولا شيء غير الوحي، فقد يشاركه في ملكاته الذهنية والفكرية خارج الوحي الكثير من الناس.

وهل تعثر للأستاذ جعيط على رأي في الاستشراق والمستشرقين؟ يقول عنهم: لا معنى لانتقاد الاستشراق، ما دام العرب والمسلمون لم يقوموا باستكشاف ماضيهم بأنفسهم باتخاذ المناهج المعترف بها. نقول: وأية مناهج هذه التي تبلبل الفكر، وتشوش الذهن، وتبعث الحيرة في النفوس،وتدوس المشهور والمتفق عليه بالأقدام؟

ثم يحمل على المستشرقين؛لأنهم يدعون أن القرآن هو من وضع محمد، وأنهم ينظرون إلى الإسلام والقرآن نظرة مجردة من كل إيمان (حتى هنا فالرجل يلومهم لأنهم لم يؤمنوا بما جاء به الرسول) ولكنه سرعان ما يلف ويدور، فيقول: لأن المستشرقين لم يعترفوا بسعة علم النبي، ومقدرته الفذة في معرفة التراث الديني واللغات السريانية والعبرية واليونانية (حتى اليونانية يا صاح؟) التي نجدها في القرآن، ومعربا في الشكل. وماذا قال المستشرقون غير هذا يا أستاذ؟ ولعلك بالغت أكثر منهم.

ومن أمثلة قول الشيء وضده، وهي كثيرة في كتابته للسيرة، أنه لم يكن هناك نبي عربي قبل محمد ﷺ، في حين أن القرآن ذكر ثلاثة منهم، وهم هود وصالح وشعيب، ثم يعود بعد ذلك فيتحدث عن أنبياء العرب الذين قص القرآن ما جرى لهم من تكذيب، فأيهما نصدق؟

ومن جهة يظهر لنا أنه من أنصار الأديان ومحبيها في قوله: من ينظر اليوم إلى الأديان الماضية والحاضرة (؟) من أهل العلم والحكمة، وحتى سلامة العقل ينظر إليها بمحبة وتقدير ويجب عليه ذلك. ومن جهة ثانية يقول: إن الأديان لم تخلص الإنسان من آفاته، وأدخلت عليه أيضا عنصر الرهبة.

ومثال أخير على قول الشيء وضده حديثه عن الشيطان عند العرب، فمرة يقول: من جهة العرب الأرجح أنهم في ثقافتهم الأصلية لم يكونوا يعرفون الشيطان أو الشياطين، وهي من حزب إبليس، أو من ذريته، وإنما يعرفون الجن فقط، ثم يقول في مكان آخر من كتابه: «الوحي والقرآن والنبوة»: نحن نعلم بوجود الهاتف لدى الأعراب، ووجود التابع، وأن للشاعر شيطانه. فأيهما نصدق: القول الأول أم الثاني؟

وكان القرآن وما زال يترصد ما يقال عنه، يقول تعالى متحدثا عن تردد المنافقين: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: 110]، وفي نفس السورة: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة:45].

والمثل العربي يقول: من مدح وذم فقد كذب مرتين، والأصح أن نقول: من أثبت ونفى فقد قصد بث الحيرة والبلبلة في النفوس.

متى ولد الرسول ؟ ومتى بعث ؟

سؤال ما كان لنا أن نلقيه، أو أن نبحث فيه، لأنه من الأمور البديهية، ولكن هشام جعيط يريد أن يثير مسائل لا تقدم ولا تؤخر في السيرة النبوية، وليست بذات أهمية تذكر، إلا أن حبه للمخالفة دعاه إلى مراجعة كل ما اتفق عليه الناس من الخاصة والعامة،أو لنقل: إنه يردد ما يقوله المستشرقون، فلندعه يصنع ما يشاء.

يقول الأستاذ جعيط : إن الرسول ولد سنة 580 ميلادية، وكتب السيرة القديم منها والحديث متفقة على أنه ولد ﷺ سنة 570 أو 571. وهذا التاريخ لا يصمد عنده أمام البحث، ولا ندري أي بحث يريد، وما هي المصادر التي اعتمدها ليرفض ما جرى عليه الاتفاق. ثم يقول إنه عاش خمسين سنة فقط.

وهذا الرأي الذي ذكره جعيط هو في الواقع للأب لامنس في كتابه: «الإسلام: معتقدات ومؤسسات»، فقد رأى أن يتأخر عما اتفق عليه كتاب السيرة (أي عام الفيل سنة570 أو 571 للميلاد الثاني عشر من شهر ربيع الأول) بعشر سنوات على الأقل، مخالفا الرأي الشائع عند المسلمين من أن الأنبياء يبعثون على رأس أربعين سنة، وسايره بروكلمان قائلا: ولكن الشيء الذي لا يشك فيه أنها(يقصد سنة الميلاد) متأخرة عن ذلك بعض الشيء (أنظر لخضر الشايب: «نبوة محمد ﷺ» ص385).

والحق أن الرسول ولد كأي إنسان في مكة، لا يعرف بالضبط وبالتدقيق متى ولد (وقد اتفق غالبية العلماء على التاريخين المذكورين أعلاه)، ويعرف الباحثون أن الأدباء والعلماء مثلا لا يعرف تاريخ ميلادهم، أما تاريخ الوفاة فهو معلوم غالبا. وثانيا ما هي الوثيقة أو المصدر الذي استند إليه الأستاذ جعيط، وأفاده أنه ولد سنة 580 بالضبط؟ وإذا كان هجوم أبرهة على مكة كان سنة547 ميلادية، ويقال إن الرسول ولد عام الفيل، فلماذا لا يختار هذا التاريخ، وكان متحققا من وقوع هذه الغزوة في تلك السنة؟ أم أنه أراد أن يخالف المشهور حتى يعرف؟ والمؤرخ، والأستاذ جعيط من المؤرخين بلا شك، لا يلجأ إلى التخمين أو الخيال، وإنما يعتمد نصا أو وثيقة تقوده بعد الفحص والتمحيص إلى الحقيقة. وتبقى هذه الحقيقة التي توصل إليها نسبية. والتاريخ، والدكتور جعيط أحد أساتذة التاريخ الكبار، يعلم جيدا أنه من العلوم الإنسانية، وليس من العلوم الصحيحة، وأشار هو نفسه إلى أن المعرفة التاريخية تبقى نسبية ومتغيرة بتغير المصادر والوثائق. ولكنه في مكان آخر يقول : إن علم التاريخ بلغ من المصداقية درجة قرَّبته كثيرا من العلوم الصحيحة. ومن يعتبر أن التاريخ أصبح قريبا من العلوم الصحيحة فهو كمن يحرث في البحر، ففي عصرنا نعيش بعض الأحداث، وربما نشاهدها على شاشة التلفاز، ولكن الناس، وحتى المثقفين يختلفون في أسبابها ونتائجها، وأستاذ التاريخ أدرى بالأمثلة على ذلك (مؤرخو الغرب مختلفون في مجريات الحرب العالمية الثانية مع مؤرخي روسيا مثلا). ثم لماذا نذهب بعيدا، وقد قلنا إن الأستاذ جعيط نقل أو ساير الأب لامنس في تأخير سنة ميلاد الرسول بعشر سنوات، للسبب الذي ذكرنا؟

يقول :إن الرسول بعث، وهو في الثلاثين من عمره، قياسا على السيد المسيح الذي بعث في هذه السن، وحسب رأيه فإن سن الأربعين الذي ثبت لدى العلماء قديما وحديثا هو سن الشيخوخة، ومن هنا يستغرب كيف يقرر القرآن أنها أي الأربعين هي السن التي يبلغ فيها الإنسان «أَشُدَّه» ويعبر عنها بالأشد. ترى هل أن فصاحته فوق فصاحة القرآن، وهو الذي يخطئ في اللغة؟ ولست أدري، ولا المنجم يدري في أي معجم لغوي

وجد أن سن الأربعين هو سن الشيخوخة، ففي المعجم الوسيط (أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة) هي غالبا عند الخمسين، وهو فوق الكهل وعند الهرم. أما اللفظة القرآنية: «أَشُدَّه» فالأشد في نفس المعجم تعني الاكتمال. يقال: بلغ أشده: اكتمل وبلغ قوته. والتعبير القرآني في الآية: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [القصص: 14] يدل على أن الإنسان في هذه السن قد اكتملت قواه العقلية وحتى البدنية، والناس يعرفون أن الإنسان يمر بالمراحل الآتية الطفولة (حتى 14 سنة) فالشباب (حتى سن الخمسين) ثم الكهولة فالشيخوخة. فاستغرابه في تعبير القرآن بالأشد، وإقراره أن الرسول بعث في الثلاثين، أو حتى قبل ذلك، كما يقول ليس في محله، إلا إذا رسم لنفسه منذ البداية مخالفة المعروف والمشهور. عفوا، ألم نقل إنه نقل عن الأب لامنس مسألة الميلاد، ومتى يبعث الرسول؟

وإصراره على أن سن الشيخوخة يكون في الأربعين أمر عجيب وغريب؛ لأن الناس في العهد الجاهلي ربما تبدأ شيخوختهم بعد الستين أو حتى السبعين، فلم تكن البدانة ثم الترهل معروفة عند هؤلاء الناس، وذلك لكثرة حركتهم، واكتفائهم بغذاء طبيعي وسليم، وقد كانت النحافة هي الغالبة على أجسام العرب في العصر الجاهلي.

اسم الرسول

أما إسم محمد الذي يزعم الأستاذ جعيط أن عائلته سمته: «قُثَم» على إسم عمه الذي مات صغيرا، فالمعروف أن العباس عم الرسول هو الذي سمى ابنه: «قثم» على إسم أخيه المفقود، و«قثم بن العباس» هو أحد الذين قاموا بغسل النبي ﷺ عند وفاته. وقد جاء في «السيرة الحلبية»، وهو كتاب ملئ بالخرافات والأساطير أن الرسول كان اسمه «قثم». وقال صاحب السيرة: إنها رواية ضعيفة، وجاء في «أنساب الأشراف» للبلاذري، قيل: وقالوا اسمه «قثم»، وهو خبر يفتقد إلى الإسناد، والخبر إذا كان بهذه الصفة لا يعمل به، ولا يلتفت إليه عند أصحاب الصناعة الحديثية. وتلقف هذه الرواية المستشرقون، وهم المولعون بالأخبار الموضوعة والضعيفة، ويتركون الأخبار الصحيحة المسندة لأغراض خسيسة، وجاء تلامذة المستشرقين من العرب فتلقفوا أقوالهم وأعادوها على مسامعنا، ووجدتها المواقع المغرضة في الإنترنت فرصة للنيل من الرسول، ونعته ﷺ بالكذب. والدليل أن ما كتبه الأستاذ جعيط عن إسم الرسول منشور في كثير من المواقع التبشيرية. وهكذا يحاربنا أعداء الإسلام بأقلامنا، ويغزوننا بأموالنا، وينطلقون بدباباتهم وطائراتهم من أراضينا، ليقتلوا أطفالنا ونساءنا وشيوخنا، وتدمير مدننا.السؤال الذي يطرح الآن: لماذا يرفض الدكتور هشام جعيط الأخبار المسندة، والموزونة بميزان الذهب كما يقال (حديث الغار مثلا)، ويقبل الأخبار الضعيفة بل والموضوعة، ويتوصل بها إلى نتائج يعتبرها هامة، ويبني من «الحبة قبة» كما جاء في المثل التونسي؟ إنها طريقة المستشرقين في الكتابة عن الإسلام عموما، وعن الرسول خصوصا، والأستاذ جعيط يسير على خطاهم، ولا يخرج عن مسارهم في قليل أو في كثير.

وذهب هؤلاء المستشرقون إلى أن القرآن المكي لم يرد فيه ذكر إسم «محمد». ولما هاجر إلى المدينة أصبح اسمه «محمدا». وقد فند المرحوم جواد علي في كتابه عن السيرة النبوية هذه المزاعم وأبطلها، وهو أجود ما كتب في العصر الحديث عن سيرة الرسول، واعتبر الأستاذ جعيط أن كتاب «محمد ﷺ» لمحمد حسين هيكل هو آخر الكتب المحترمة، ومحمد حسين هيكل ليس بمؤرخ، وكتابه عن السيرة ألفه لاعتبارات سياسية لا فائدة في الخوض فيها هنا. وقد أتيت عليها في كتابي «ضواء على السيرة النبوية»، في حين أن جواد علي مؤرخ أصيل، قد لا يجود الزمان بمثله في هذا الزمن الرديء، وأعرف أن هذا الكلام لا يخلو من تمجيد ومدح ، ولكن المرحوم جواد علي يستحق أكثر من هذا، فلا بد من إجلال العلماء الذين أفنوا أعمارهم في البحث والتنقيب، وجواد علي هو أحد هؤلاء العمالقة. ولا شك أن الأستاذ جعيط، وهو المؤرخ، هو أميل مني إلى جواد علي بحكم اختصاصه، ومع هذا فكتاب «محمد ﷺ» لهيكل لم يتعرض لقثم هذا (نعم نجد أحد مراسلي هيكل في المقدمة يذكر أن المستشرقين يقولون إن اسم الرسول الحقيقي هو قثم) اعتبارا منه أن هذا من ترهات الإخباريين الذين لا يتورعون عن دس بعض الإخبار، حقدا وبغضا منهم لرسول الله ﷺ.

إذن من خلال ما توصل إليه، أو بالأحرى ما ذهب إليه المستشرقون، يعتقد أن الرسول لم يكن اسمه محمدا منذ الولادة؛ لأن القرآن لم يسمه بهذا الاسم إلا في السور المدنية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: 29] وكذلك ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144] فإسم «محمد» واحد من التأثيرات المسيحية، ونقل إلى العربية عن السريانية، ويعني في تلك اللغة «الأشهر والأمجد»، وأن صيغتها الأولى كانت «محمدان»، أما اسمه الحقيقي فهو (كما قال) «قثم».

والحق أن هذا الرأي للمستشرق شبرنجر، الذي زعم أن هذا الإسم قد أطلقه الرسول على نفسه في المدينة، بدعوى أن اسمه ورد في أربع سور مدنية: «آل عمران، الأحزاب، محمد، الفتح»، ولم ترد في سور مكية، وقد اتخذ اسم محمد بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى، وأيده مستشرقون آخرون، فذهب بعضهم إلى أن الرسول كان يحسن اليونانية (بالمناسبة يقول جاك بيرك، الذى يقال عنه: «صديق العرب»، إن سورة «الإخلاص»

أخذها الرسول من اليونانية) وإنه اتخذ اسمه محمد من بارقليط (هذا يدل على أن محمدا مذكور في الإنجيل بهذا الإسم محمد) الواردة في إنجيل يوحنا، والمترجمة بمنحمانا، ومنحمنا في الآرمية، فلما وجد البشارة بظهور البارقليط أي المنحمنا: «يخرج الناس من الجهالة والضلال إلى الصراط المستقيم» أخذ اللفظة السريانية وتمسك بها، فادعى أنه المنحمنا، وصير اللفظة محمدا، وألقى على لسان الإنجيل، كما زعموا، أنه هو الذي بشر به المسيح كما ورد في كتاب جواد علي المذكور أعلاه.

هذا اعتراف ضمني بوجود إسم الرسول محمد باسم «البارقليط» الذي تنكره الكنيسة، وترفضه إلى الآن رفضا قاطعا، وهو كلام حق أريد به باطل، فالرسول مذكور في التوراة والإنجيل، كما قالوا، وباسم «البارقلي»، ولكن معرفة الرسول لهذه اللغات باطلة، ولا تستند إلى دليل، ولو كان خبرا ضعيفا أو حتى موضوعا.

القرآن ليس ملزما أن يسمي الرسول في مكة، وهو معروف لدى سكانها بهذا الإسم، والنبي لم يكن هو العربي الوحيد الذي تسمى باسم محمد في التاريخ الجاهلي، وقد ذكر السهيلي في «الروض الأُنُف» عن ابن فورك أسماء ثلاثة تسموا به، وهم محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح، ومحمد بن عمران بن ربيعة (راجع لخضر شايب: «نبوة محمد ﷺ» ص384). ثم ما ذكره الأستاذ جعيط من وجود هذا الإسم في السريانية يؤيد نبوة محمد ﷺ، فإسمه موجود في التوراة والإنجيل، ولو اتجه هذا الاتجاه، وتعمق في البحث لأفحم من ينكر وجود النبي في الكتب الدينية السابقة المبشرة بقدومه، وحتى الزرادشتية منها. أما أن يقول إنه أخذ هذا الإسم من السريانية، ومن التراث المسيحي، فهذا الرأي لا يشاركه فيه أحد، ما عدا المستشرقين طبعا الذين استقى منهم هذه الآراء الفطيرة.

إن اختيار الإسم لا دخل للإنسان فيه، فأبواه يسميانه. هذا بديهي. وثانيا كل المصادر القريبة من عهد البعثة تشير بدون تردد إلى أن إسم الرسول الذي عرف به هو محمد، وعرف في قريش بهذا الإسم، ولو كان اسمه كما يقول المستشرقون، وسار على منوالهم الأستاذ جعيط، لكان أبو جهل يناديه بهذا الإسم: «قثم» لا بـ«محمد». ونعرف أنهم كانوا يسمونه بالأبتر، لأنه لم يعش له ولد ذكر. وأن يطلق عليه أتباعه أسماء أخرى فلا دخل له في هذه الأسماء، ومن جهة أخرى لو كان اسمه «قثم» هل يسكت اليهود، كما أشار الأستاذ إبراهيم عوض، وهم الذين يترصدون كل خطوة يخطوها الرسول في المدينة، لو كان كذلك لأقاموا عليه الدنيا وقالوا : لقد بدل إسمه في المدينة، فأصبح محمدا، وكان في مكة اسمه «قثم».

وقد رد جواد علي على مزاعم المستشرقين، فذكر أن الرسول عرف بـ«محمد» في جميع أدوار حياته: عرف به في مكة، أي قبل هجرته إلى يثرب، كما عرف به بعد هجرته إلى المدينة. حتى الجاهليون عرفوه به، وسموه باسم محمد في مخاطباتهم وفي هجائهم له، كما بايعه من دخل في الإسلام بهذا الإسم، وورد في جميع العهود والمواثيق، ومن ناحية أخرى لم يسم كتبة النصارى، وخاصة من الحاقدين على الإسلام منهم الرسول بغير إسمه الذي عرف به، ابتداء من يوحنا الدمشقي و تيوفانس البيزنطي، وسماه كفار قريش مذمما،أي ضد محمد، لغيظ الرسول والمؤمنين به، مما يدل على أن قريشا كانت تعرف الرسول بهذا الإسم. وقد ورد في الخبر أن الرسول قال: ألم تروا كيف صرف الله عني لعن قريش وشتمهم؟ يشتمون مذمما وأنا محمد. ويختم جواد علي هذه الردود بقوله: إن الرسول لا يضيره أن يسمى: قثما أو غيره كأحمد ومحمد؛ لأنه لم يضعها النبي لنفسه، ولم يبتدعها من عنده، لقد جاء إلى هذا العالم فدعي بها.

ويوجد دليل تاريخي (ونحن ننقل عن البحاثة الجليل الدكتور إبراهيم عوض) ونذكر أن الأستاذ جعيط مؤرخ، يتمثل في وجود إسم «محمد» في الكتب المسيحية الأولى التي ألفت في القرن السابع الميلادي، وتشير بدون لبس إلى أن إسم الرسول هو «محمد». يقول المستشرق الأمريكي أرثر جيفري، وهو معروف بحقده وكراهيته للإسلام : «إن أقدم إشارة إلى محمد في الكتابات المسيحية هي فيما يبدو تلك المتمثلة في »تاريخ سيبوس« الأرمني، الذي تم تأليفه في القرن السابع الميلادي، وفيه أن محمدا رجل إسماعيلي ادعى النبوة، وعلم مواطنيه العودة إلى دين إبراهيم. وتوجد وثائق سريانية تعود إلى القرن السابع والثامن للميلاد تذكر إسم «محمد» (هكذا: ماهومت ومؤامد)». كما ألفت كتب نصرانية للرد على الرسول، وبالتالي على الدين الإسلامي، نذكر منها كتاب نيسيتاس البيزنطي: «تخطئة محمد» وكتاب أرتولوميو الإيديسي: «الرد على محمد». ولو كان اسمه قثم كما يدعي كتبة هذه الأيام لشنعوا بالرسول، وضحكوا، وقالوا: غير إسمه من قثم إلى محمد ليوافق ما جاء في الإنجيل. ولكن هؤلاء الكتاب القريبي العهد بالرسول لم يشيروا إلى ذلك البتة.

ثم ما دليل الدكتور جعيط على أن اسم عبد الله والد الرسول لم يكن بهذا الإسم، وإنما سماه الرسول بعد ذلك عبد الله؟ هل وجد بطاقة ولادته الأصلية في بلدية مكة، ثم أنكر على كتاب السيرة أن يكون أبو النبي قد مات، وهو في بطن أمه. قال كتاب السيرة ذلك حسب جعيط حتى لا يكون لأحد فضل عليه. ونسي، كما يقول الدكتور عوض، فضل جده عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وقد قاما بتربيته، وحماه عمه أبو طالب من أذى قريش. ثم ما قيمة هذا في أحداث السيرة: مات أبوه وهو في بطن أمه، أو ولد وأبوه حي؟ ومن أين له أن الرسول تزوج بخديجة، وهو في الثالثة والعشرين، وهي في الثامنة والعشرين من العمر؟ هل وجد عقد زواجه في كلية اللاهوت بمكة؟ كل هذا ضرب من التخمين لا يستند إلى أي دليل، فمناقشة المسلمات إذا لم تأت بجديد يستند إلى وثائق ونصوص فلا خير فيها، ولا يلتفت العاقل إليها.

فالرجل كما نرى يخالف ما هو مجمع أو شبه مجمع عليه، إنها الرغبة كما يقول الدكتور إبراهيم عوض في إفقاد القارئ العربي والمسلم الثقة في تاريخه وسيرة نبيه وقرآنه وعلمائه، إنها الشهوة الجامحة في خلخلة ما هو صلب مستقر ثابت، لا لكي يحرك الأذهان، وقد شكت في كل شيء، ورأت الضياع مكشرا عن أنيابه في وجهها يريد أن يفترسها، وبالتالي فالرجل يريد أن يخالف السائد حبا في المخالفة لا غير.

أمية الرسول

يبدو أن الرجل على قناعة تامة بأن الرسول لم يكن أميا، وأنه يعرف القراءة والكتابة، وتعلم السريانية في مكة، كما أشرنا أعلاه، ثم ذهب إلى الشام، وتخرج على قساوستها، واستوعب ما تلقاه عنهم، وتخرج على أيديهم تخرجا جيدا، وألف القرآن، وزعم لأهل مكة أنه نبي يوحى إليه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فللأستاذ جعيط ثقة في القرآن باعتباره نصا تاريخيا، لا يرقى إليه الشك، وأنه يعبر عن حياة محمد ﷺ تعبيرا جيدا. وما رأيك في هذا النص الذي ينفي عن الرسول القراءة والكتابة، ويثبت أميته في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

والقرآن وحي من الله يرد على هؤلاء المبطلين والنفاة، ويتتبع ما يخطر ببالهم حول كتاب الله ورسوله، إنْ في عصر البعثة أو فيما تلاه من العصور. والثابت علميا أن مكة لم تكن تضم في عهد البعثة أكثر من سبعة عشر رجلا يقرؤون ويكتبون، وتوجد قائمة إسمية لهؤلاء، ولا نجد ذكرا للرسول في هذه القائمة، وإذا كان واط ولامنس وبلاشير وغيرهم قد أثبتوا بحجج واهية، وبالاعتماد على نصوص من الحديث والقرآن (ونشك في فهمهم لهذه النصوص؛ لأنها تتطلب معرفة عميقة باللغة العربية، وهم خلو منها)، فإن مستشرقين آخرين أثبتوا الرأي المشهور القائل بأمية النبي

، ومن هؤلاء أماري وكازيميرسكي ومونتيه، وقد ترجم ثلاثتهم القرآن، واعتنق الأخير الإسلام.

يرى جعيط إذن أن النبي ﷺ كان قارئا كاتبا، وأنه ليس في القرآن ما يدل على عدم معرفته القراءة والكتابة، كما يرى ما يراه المستشرقون أن معنى «الأمي والأميين» النبي غير اليهودي، والأمم غير الكتابية، لأن النبوة كانت في ذلك الحين في بني إسرائيل، وأن النبي المرتقب سيكون منهم، ولكن الله خيب ظنهم. والأستاذ جعيط لا يذكر، كما يقول الأستاذ رضوان السيد، أن معنى الأمي بالعربية من يجهل الكتابة، لكنه يستشهد على اقتضاء السياق القرآني للمعنى الآخر بالآية الواردة في سورة «آل عمران»: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20] وبالآيتين الواردتين في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة]. ثم يقول الأستاذ رضوان: وبالعودة إلى المعاجم اللغوية، وإلى السياقات التي يذكر فيها المفرد صفة النبي، أو الأمم، ومنهم العرب والمسلمون، نجد أن المفرد يعني في مواطن: «عدم معرفة الكتابة»، وفي مواطن: «الجهل (ضد العلم)»، وأخيرا: «غَيْر أهل الكتاب (اليهود)» في السياق السابق. ثم يقول الدكتور رضوان السيد: ومع ذلك فإن النبي ﷺ ما كان يحسن القراءة والكتابة فعلا، وبنص القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]. لذلك يتعين الذهاب، واستنادا إلى منطوق القرآن، إلى أن النبي محمد ما كان يحسن الكتابة والقراءة، وأن مفرد «أمي» من ألفاظ المشترك، وما أكثرها في القرآن، أو ما يسميه علماء القرآن: ألفاظ الوجوه والنظائر، وهي المفردات التي تختلف معانيها، أو تتعدد بتعدد مواضع ورودها في القرآن.

وهنا يورد الأستاذ رضوان السيد ما ذهب إليه أبو الوليد الباجي الذي كان يفسر حديثا للبخاري يتعرض إلى صلح الحديبية، وكان علي بن أبي طالب كتب «محمد رسول الله»، فقال سهيل بن عمرو (وقد أسلم فيما بعد): لا تكتب «محمد رسول الله». لو كنت رسولا لم نقاتلك، فقال النبي لعلي: امحه. فقال علي: لا والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله الكتاب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. ففسر الباجي الحديث بأن النبي كتب فعلا، وذهب إلى أن الأمية بمعنى عدم معرفة الكتابة كانت معجزة إبان بعثة الرسول، حتى لا تقوم الشبهة بأنه كتب القرآن من عنده، لكن بعد استتباب أمر الإسلام تعلم النبي القراءة والكتابة، ولم يقل لنا الباجي: من علَّمه؟ إذ لم تتوافر في الأمية شروط المعجز. وذكر رضوان السيد أن ما ذهب إليه أبو الوليد الباجي زلة من زلاته جره إليها الجدال، وحب الغلبة والشهرة.

ومن المعلوم أن المستشرقين إنما أنكروا أمية النبي (بمعنى عدم علمه بديانات أهل الكتاب) لأنهم كانوا يذهبون إلى معرفته الجيدة باليهودية والمسيحية، وأخذه عنهما، لكن المقصود في السياق الذي ذكره جعيط واضح، وهو أنه عليه الصلاة والسلام نبي من غير بني إسرائيل، ومبعوث للناس كافة الذين كان اليهود يصفونهم بالأميين، بمعنى غير ذوي الدين أو الوثنية.

يقول الأستاذ جعيط : إن أول نبي مبعوث من غير بني إسرائيل هو النبي محمد ﷺ . بيد أن الأستاذ رضوان السيد نبهه إلى أن القرآن ذكر عدة أنبياء لا تعرفهم التوراة، وهم هود وشعيب وصالح. وإبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا. فمن أين أخذ الرسول قصة الأنبياء الثلاثة إذا كان القرآن قد أخذه عن غيره؟

لقد جاءت قراءة رضوان السيد لكتاب هشام جعيط السيرة النبوية: «الوحي والقرآن والنبوة» تقطر إجلالا لله (سبحانه وتعالى) وتقديرا للرسول ﷺ. ولم يمنعه هذا الإجلال والتقدير من توخي الموضوعية والدقة. واللبيب بالإشارة يفهم. ومع أن الأستاذ السيد بين بما لا يدع مجالا للتردد أمية الرسول بالحجة والبرهان، إلا أن الموضوع ما زال يحتاج إلى التوضيح لمن لم يقتنع بعد.

ولننظر في القرآن، وهو نص أو وثيقة مقبولة، كما يبدو، عند الأستاذ هشام جعيط، فما هي الآيات التي تدل على أمية الرسول؟ نكتفي بآيتين فقط وهما:

قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]. فكلمة «تتلو» تدل على نفي القراءة والكتابة مطلقا عند جميع المفسرين، و«كتاب» تدل على كتب الديانات السابقة، والمفرد هنا يدل على الجمع، وهو استعمال معروف في الأدب القديم والحديث، وأشير إلى أن طه حسين يستعمل مفرد الصديق في معنى الجمع، وبقية الآية تؤكد نفي القراءة والكتابة عن الرسول. و«مِنْ قبله»: الضمير يعود على القرآن. نشير إلى هذا لأن بعض الكتاب يقولون إن الأمية كانت مرحلية، فقد كان في بداية النبوة لا يعرف القراءة والكتابة، ثم أصبح بعد ذلك يقرأ ويكتب. وقد رأينا أن رضوان السيد يبطل هذا الزعم أعلاه. ونحن نطمئن إلى تفسير ابن عاشور لهذه الآية عندما يقول: هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول ﷺ، ودلالتها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد بها الاستدلال في القرآن في مواضع كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: 52] وقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 16]. ومعنى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أنك لم تكن تقرأ كتابا حتى يقول أحد: هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل. «ولا تخطه» أي لا تكتب كتابا، ولو كنت لا تتلوه. فالمقصود نفي حالتي التعلم، وهما التعلم بالقراءة والتعلم بالكتابة. استقصاء في تحقيق وصف الأمية، وتقييد «تخطه» بقيد «بيمينك» للتأكيد، لأن الخط لا يكون إلا باليمين، فهو كقوله« ولا طائر يطير بجناحيه».

والآية الثانية من سورة الفرقان، وهي: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] : صيغة «افتعل» تدل على التكلف لحصول الفعل كما يشير ابن عاشور، أي حصوله من فاعل الفعل، فيفيد قوله: «اكتتبها» أنه تكلف أن يكتبها. ومعنى هذا التكلف أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أميا كان إسناد الكتابة إليه إسنادا مجازيا، فيؤول المعنى: أنه سأل من يكتبها له، أي ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسنادا مجازيا لأنه سببه، والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أمي لا يكتب، ومن قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه، فالمعنى استنسخها، وهذا كله حكاية لكلام النضر بن الحارث بلفظه ومعناه، ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه؛ لأنه علم أن هذا الزور مكشوف، قد لا يقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي، فكان يستمد قرآنه من كتب الأولين، فهيأ لقبول ذلك أنه كتبت له، فاتخذها عنده، فهو يتأولها لمن يحسن القراءة، فيملي عليه ما يقصده القرآن.

وما أكثر أمثال النضر بن الحارث في عصرنا، إلا أنهم يفوقونه في ترويج البهتان على الرسول، ويلصقون به ما ليس فيه، في ثوبٍ مُغْرٍ يسمونه: الموضوعية، ورفض المسلمات، والبديل هو لاشيء.

ومن المضحك الذي ذكره المرحوم جواد علي أن المستشرق شبرنجر، الذي امتدحه الأستاذ جعيط، يرى أن النبي قرأ كتابا في العقائد والأديان وأخبار الماضين. وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو «أساطير الأولين»، وأخذ إسم الكتاب من قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 83]، وكذلك: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]. يقول جواد علي: فقد قالت قريش هذه المقالة استخفافا واستهزاء، بمعنى أن ما يتلوه الرسول عليهم هو من هذه القصص الذي يقص عن الأولين، فهو خرافة وكلام هراء، وليس فيه ما يدل على وجود كتاب «أساطير الأولين» ويأخذ الرسول منه، وقد رد على هذا الرأي نولدكه في كتابه: «تاريخ القرآن»، وعده قولا لا أهمية له. ولو أخذ القرآن عن هذا الكتاب فكيف يعلن عن اسمه؟ فما هؤلاء الناس لا يفقهون ما يقولون؟

ولو افترضنا أن الرسول لم يكن أميا، فما مدى تأثير هذه القراءة والكتابة في النص القرآني؟ ومعلوم أن الذين يثبتون أميته يستدلون على أن القرآن معجز، ولا يمكن أن يأتي به أمي، ونحن نقول: ولا يمكن أن يأتي به متعلم، ولو اطلع على علوم الدنيا كلها، وواضح أن القرآن يستحيل على أن يأتي البشر بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. فالرسول أمي ما في ذلك شك، ولو كان عارفا بالكتابة لما احتاج إلى كُتّاب لتدوين القرآن، ولأقبل بنفسه على كتابته، والقرآن ينزل عليه في حله وترحاله، وفي الليل والنهار، ولم يره أحد كتب آية من القرآن بنفسه، وإنما، كما هو معلوم، يعتمد على كُتّاب الوحي، فهو إذن لا يعرف القراءة والكتابة بلغته، فما بالك بالسريانية؟ وتلك شنشنة أخرى.

رحلة الرسول إلى الشام

رأى الرسول آن يتكسب من التجارة على عادة أهل مكة، فأقبل على البيع والشراء (وأنا أنقل هنا عن المرحوم جواد علي) مستقلا بأعماله أحيانا، ومشاركا مع غيره أحيانا أخرى، وقد تاجر بشراء البَزّ وبيعه، يشتريه من سوق حباشة على طريق اليمن، وهي سوق مشهورة لبيع هذه البضاعة، ويبيعه في مكة. وقد عرف الرسول ﷺ بالأمانة والصدق في المعاملة، ولكنه لم يكسب من عمله في البيع والشراء مالا يذكر ولا ثروة تساعده وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره. وورد في بعض كتب السير أن محمدا قام لخديجة بسفرة أو سفرتين أو أربع سفرات إلى اليمن إلى سوق حباشة أو إلى جرش، وذلك قبل قيامه بسفرته إلى بصرى، وأن خديجة دفعت له بعيرا عن كل سفرة قام بها إلى اليمن، وأربع بكرات عن سفرته إلى بلاد الشام.

وتشير بعض المصادر إلى لقاء مبكر بين الرسول، وهو صبي، وبين الراهب بحيرى عندما صحب عمه أبا طالب في رحلته الأولى إلى بلاد الشام. وقد قيم الدكتور محسن عبد الحميد هذه الرواية فقال، بعد أن عرض بالنقد لأسانيد الرواية ومتونها كما جاء في كتاب «دراسة في السيرة» لعماد الدين خليل: هذه الروايات مردودة سندا ومتنا، لما فيها من الضعف والنكارة، ولما فيها من فساد المتون وبطلانها من الناحية التاريخية، وتعارضها مع قواعد العمران البشري والقوانين، مما يُثْبِت إثباتا قاطعا أن هذه الرواية موضوعة، نقلها المؤرخون، وبعض المحدّثين الذين لا يتشددون في شروط الرواية، ظنا منهم أنهم بذلك يضيفون دليلا جديدا يسند نبوة رسولنا الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولم ينتبهوا إلى أن أمثال هذه القصص فيها الشر أكثر مما فيها من الخير، لأن أعداء الإسلام منذ القديم أرادوا أن يروجوا أمثال هذه الروايات الواهنة، كي يثبتوا وجود بحيرى وغيره من القسس في أطراف الجزيرة العربية الذين كان الرسول الأعظم في زعمهم يتصل بهم، ويأخذ عنهم.

ولقد اهتم بهذه الروايات الباطلة الكاذبة المؤرخون والمستشرقون الغربيون (وحتى الكتاب العرب) وبنَوْا عليها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يمكن أن تقف لحظة واحدة أمام الحقائق التاريخية، منهم وليام موير، ومرجليوث ودرابر، وغيرهم كثير، حيث اعتبروا أن أسرار الإسلام كلها أخذها محمد ﷺ من هذا الراهب، ولم يدعهم تعصبهم أن يفكروا: كيف يمكن لطفل، عمره تسع سنوات، أن يأخذ كل هذه الأمور في لقاء عابر من بحيرى أو أمثال بحيرى؟

ولقد درس هذه القصة المستشرق الفرنسي هوارت، وقال في خاتمة بحثه: لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها، ونشرت، وبحثت منذ ذلك الوقت، بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال (نقلا عن عبد الله دراز قي كتابه: «مدخل إلى القرآن الكريم» المكتوب أصلا باللغة الفرنسية، ثم ترجم إلى العربية).

ولْنُجَارِ من يقول إن الرسول أخذ من بحيرى ونسطور وغيرهما من قساوسة سوريا الأفكار الدينية التي ضمنها في القرآن، واستفاد منها استفادة جمة، وهو مستحيل، فما هو حال الدين المسيحي في بلاد الشام في عهد الرسول، وبالذات عند اتصال الرسول بالرهبان السوريين، كما يزعمون؟ فهل وجد ما يسره في هذه الديانة، ويغريه بالأخذ من قساوستها؟

حال المسيحية في سوريا في عهد الرسول

نترك كاتبا متخصصا في تاريخ الأديان في هذه الفترة يتحدث عن أوضاع النصرانية في بلاد الشام، وذلك من قبيل: وشهد شاهد من أهلها، يقول ج. سال (نقلا عن محمد عبد الله دراز في كتابه ،مدخل إلى القرآن الكريم): إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية، فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين، والانشقاق بينهم، والخلافات على أتفه المسائل، والمشاجرات التي لا تنتهي، والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها، وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم، واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة، قد انتهوا تقريبا إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها. وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت، بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد، ولقد وجدت الكنيسة الشرقية نفسها بعد مجمع نيقية ممزقة، بسبب الخلافات بين أنصار أريوس وسابليوس ونسطور ويوتيخيوس. ولقد رأى رجال الدين أن يمنح ضباط الجيش بعض الحماية، وبهذه الحجة كان العدل يباع علنا مما شجع كل نوع من أنواع الفساد والرشوة، أما بالنسبة للكنيسة الغربية فقد بلغ الخلاف بين دماز وأرزيسيان على كرسي الأسقفبة بروما في شدته حد اللجوء إلى العنف والقتل. ولقد قامت هذه الانشقاقات أساسا نتيجة أخطاء الأباطرة، ولا سيما الإمبراطور قسطنس

، وزادت حدة في ظل حكم جستنيان، الذي اعتقد أنه ليس هناك أي جرم في قتل أي رجل يخالفه في فهم العقيدة. هذا الفساد في الأخلاق وفي العقيدة الذي ساد بين الأمراء وبين رجال الدين استتبع بالضرورة فساد الشعب عامة، حتى أصبح شغل الناس الشاغل، على اختلافهم، هو جمع المال بأية وسيلة، مهما كانت، لإنفاقه بعد ذلك في الترف والرذيلة.

ورأى كاتب آخر، واسمه تايلور، وهو يؤرخ للمسيحية القديمة: إن ما قابله محمد (عليه الصلاة والسلام) وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوسا دينية منحلة وصبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل الله، مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد، واستنتج بعض مؤرخي النصارى التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بالنتيجة التالية وهي أن الديانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى أنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها.

ولم يكن مسيحيو العرب أحسن حالا من المسيحيين أنفسهم، فرغم تنصر الغساسنة احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة، ولم يأخذوا من المسيحية سوى شرب الخمر، فماذا أخذ محمد ﷺ إذا اعتبرنا أنه اتصل برجال الدين في سوريا، وأنه أقام فيها عشر سنوات أو أكثر؟ والأستاذ جعيط يقول: مدة تطول وتقصر، وقد تطول أكثر مما تقصر. هل يمكن له في هذا الفساد الديني والسياسي أن يستقي من التراث النصراني، ورجال الدين مختلفون ومتقاتلون، وكل واحد يتربص بالآخر ليحل محله، ولجأ بعض القساوسة، بمعية الحكام، إلى قتل خصمه أو نفيه؟ في هذا الاضطراب العقدي والانخرام السياسي هل يستطيع الرسول أن يفهم شيئا؟ وقد وصف القرآن حال هؤلاء الناس فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: 14].

هذا الانخرام والانشقاق الديني، وتحول المسيحية إلى خرافات وأباطيل، هو الذي عجل ببعثة محمد رسولا إلى الناس أجمعين.

ونشير هنا إلى رأي المستشرق الفرنسي هوارت في كتابه: «مصدر جديد للقرآن» القائل: مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد ﷺ قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا، فإنه يتحتم استبعادها، نظرا لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة.

أما أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) مصلح، فهذا رأي هوارت، وليس لنا أن نلزمه أن يقول خلاف ذلك، وإلا لكان التحق بكوكبة العلماء والفنانين الفرنسيين الذين أعلنوا إسلامهم.

لقد تحدثنا طويلا عن مصدر القرآن، وكان الكلام منصبا على العوامل الذاتية والخارجية، بمعنى أن الرسول محمد هو الذي ألف القرآن، واستعان بالموروث المسيحي واليهودي في بلاد الشام.

هل القرآن وحي أم كتبه الرسول؟

يقر الأستاذ جعيط، خلافا لمحمد عابد الجابري، بجمع القرآن في عهد الرسول، ولكن له تحفظات على هذا الجمع، لأنه يحتمل (كما يقول) أن تكون هناك آيات أو كلمات سقطت من القرآن، وأخرى زيدت فيه. وهو تشكيك في سلامة جمع القرآن واضح، وهذا الموقف المتردد يذكرنا بطريقة المستشرقين في الكتابة ويأتي بمثال قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] يقول: هذه الآية لا تنسجم مع نسق الآية التي وضعت فيها، وهي: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38]. يعني أنها أقحمت إقحاما في النص القرآني، إضافة إلى أن «أمرهم»، أي حكم المسلمين لأنفسهم في زمن النبي عن طريق الشورى غير مقبول، فاعتماد الشورى يكون مقبولا بعد النبي، أما في حياته فلا؛ لأنه ولي الأمر حينها، كما استغرب أن يرد الخطاب بصيغة الغائب، في حين أن الرسول كان بينهم.

ذكرني ضمير الغائب هذا الذي يتحدث عنه بمقال المرحوم الشاذلي بويحيى الذي نشره في مجلة الفكر تحت عنوان «العرب وأدبهم»، فقد قامت ضجة كبيرة، وتساءل بعض الكتاب: كيف يقول: «أدبهم» بضمير الغائب؟ لماذا لا يقول: «أدبنا»؟ أليس هو من العرب ومدرس أدبهم،؟ ونبهوا إلى أن هذا أسلوب عربي أصيل، ومستعمل بكثرة في كتب المصادر.

أما مسألة الشورى في عهد الرسول فيعرفها تلامذة التعليم الثانوي معرفة جيدة، وليس لنا أن نطيل فيها، فقد استشار الرسول أصحابه في غزوة بدر عن المكان الذي يصلح لنزولهم، واستشارهم في غزوة أحد: هل يخرج للعدو، ويترك المدينة أم يبقى فيها لمواجهتهم؟ وهم أدرى بمسالكها، وكان هو أميل إلى الرأي الأخير، وأخذ بمن رأى أن لا بد من مقاتلتهم خارج المدينة. ولم يكن في عهد البعثة أحد أكثر استشارة لأصحابه من النبي عليه الصلاة والسلام، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، استجابة لأمر القرآن الذي يخاطبه بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

وما دام المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير قد قال ذلك بالحرف الواحد فلماذا لا يسايره السيد جعيط، ويعمل برأيه، ويبرر هذا الرأي، ويدعم ما ذهب إليه ذلك المستشرق؟ لقد انطلق بلاشير من تفسير الطبري الذي ذكر أن الآية تتحدث عن مشاورات الأنصار بخصوص هجرة النبي، والعيش معهم في يثرب، ثم يعلق على شرح الطبري بقوله: هذا التفسير لا يتمشى مع السياق. وفي رأيه أن عثمان أضاف (؟) هذه العبارة من عنده كي يضفي الشرعية على تبوئه الخلافة. وكذلك فعل الأستاذ جعيط.

ولا ندري كيف يمكن التوفيق بين إضافة بعض الألفاظ في القرآن وبين قول الدكتور جعيط عن سلامته من أي تحريف أو نقصان، يقول: من غير الممكن أن يكون القرآن قد تعرض لأي تغيير في نصوصه لما له من قداسة شديدة في نفوس المسلمين، ولأنه كان محفوظا في الصدور والطروس جميعا، ويردده الناس في كل صلاة، ويرجعون إليه دائما في تشريعاتهم، بحيث لا يمكن أن يعتريه أي تغيير دون أن يثير ضجيجا وعجيجا يهتز له المسلمون في كل مكان. هذا جميل، ولكن ماذا نصنع بهذه الإضافة وغيرها التي طرأت على القرآن كما تقول يا أستاذ؟ وقد أشرنا أعلاه في فقرة الشيء وضده إلى هذا التضارب. ومقصد الكاتب واضح نبهنا إليه في هذه السطور.

ونترك﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وكونها غير ملائمة لنسق الآية للطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» أو إلى الإمام البقاعي في «نَظْم الدرر في تناسب الآيات والسور»، فليرجع إليهما من أراد التثبت من التئام هذا المقطع من الآية مع بقية المقاطع التئاما لا مزيد عليه، ولماذا قيل بهذه الطريقة؟ ونحيله كذلك في مسألة تكرار الآيات القرآنية أكثر من مرة، والتي أرجعها إلى صيغة القرآن الشفوية في الأول إلى الجزء الأول من «التحرير والتنوير»، وسيرى الأسباب الداعية إلى هذا التكرار، ولا علاقة لها بالشفوية أو أنها كررت على سبيل الخطأ. وللعلم فإن الاعتماد على الجانب الشفوي أكثر مصداقية من المكتوب؛ لأن التحريف والنقص أو الزيادة لا تكون إلا في المكتوب، ولكن هذا موضوع آخر.

أما قوله إن الآيات التي تتحدث عن الشرك في سورتي «الطور والقلم» بأنها «فلتة أو مضافة» اعتقادا منه أن الشرك لم يتبلور إلا في مرحلة لاحقة، فهذا ضرب من التخمين؛لأن الرسول منذ اللحظات الأولى للنبوة جاء لمقاومة الشرك، والإطاحة بالآلهة، والدعوة إلى عبادة الله وحده.

ثم يمر إلى التأثيرات أو المؤثرات المسيحية. وهو، على غرار المستشرقين، يرى أن الرسول اطلع خلال رحلته إلى الشام اطلاعا واسعا ودقيقا على التراثين اليهودي والمسيحي، وهو ما يظهر له عند المقارنة بين الكتاب المقدس بعهديه والكتب المنحولة وبين القرآن. يقول الرجل: كل ما قيل عن ثقافة محمد ﷺ القائمة على السماع أو بالاطلاع المتدرج غير صحيحة، كما نفى قصة تشجيع ورقة بن نوفل للنبي، لأن ما قال ورقة لا معنى له، وقال عن ورقة دائما: إن قصة ورقة ابتُدِعت لإضفاء صبغة الحقيقة لما أتى به النبي في الأول. وكنا نترقب أن يقول كما قال غيره: إن ورقة قد علمه القرآن، وذلك بطلب من خديجة قريبة ورقة. السؤال: ما دليله على أن قصة ورقة مع الرسول ملفقة أو مبتدعة؟ فهل وجد وثيقة تدعم هذا الابتداع، وتنفي ما ورد في صحيح البخاري؟ أم أنه كالعادة يخالف حتى يعرف؟

ويظهر للمؤرخ التونسي أن الرسول قد تعمقت معرفته بما ورد في الكتب المسيحية، قبل أن يرحل إلى الشام. وقد قلنا سابقا وتفكها إنه تعلم السريانية عن الأستاذين جبر وبلعام، وساعده على ذلك أنه يعرف اللغة السريانية، وعنده أن هذا ينفي كون الرسول أميا. ويقرر السيد جعيط أن القرآن، كنص من القرن السابع الميلادي ووثيقة من هذه الفترة، قد أخذ من الموروث النصراني ببراعة فائقة.

ويقول : إن الإسلام ملأ ثغرة لمن كان يتوق إلى التنصر.. ومعنى ذلك أن الإسلام الأولي في منبعه متأصل جدا في المسيحية، فبعض العبارات الموجودة في القرآن هي نفسها في اللغة السريانية، وضرب مثلا لذلك لفظة «سبحانك»، التي تقابلها في السريانية «شبحالك» و«تباركت»، التي تقابلها «بريك أت».

أقول: هذا الكلام صحيح لو قال : إن الإنجيل والقرآن والتوراة كتب سماوية تنهل من منبع واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، ولكنه أنى له هذا، وهو يقرر أن التأثيرات المسيحية (حسب المعطى الوضعي) لا يمكن إنكارها؟ يعني أن الرسول تأثر في القرآن بهذه التأثيرات عندما أقبل على كتابته. وكنا ننتظر أن يستبعد تأثر الرسول بالموروث اليهودي والمسيحي، كما يستبعد معرفته للغة السريانية، ويبرهن، وهو القادر على حشد البراهين والحجج، ولو كانت غير مقنعة، أن ما ورد في القرآن من ذكر الرسول في الكتب الدينية، والتي أنكرها أصحاب الديانتين هو الرأي الأصوب، ولكنه قبل رأي المستشرقين، ومنهم نولدكه، وأخذ يبرهن على صحة رأيهم القائل بتأثر النبي بكتب اليهود والنصارى، وتبين له وجاهة نظرتهم، وبذلك أعانهم على إخفاء اسم الرسول من التوراة والإنجيل، وهي خدمة جليلة أسداها لهؤلاء المستشرقين من حيث لا يحتسبون.

القرآن إذن من عمل الرسول، كما يرى جعيط، استقى ما فيه من أفكار وعقائد وقصص من أهل الكتاب، حين كان يقيم بالشام، ويتصل بهم هناك، ولكن بعد أن تعلم قبل ذلك في بلاده على يد الحنفاء، وفي الجزء الأول من الكتاب (ونحن ننقل عن الدكتور إبراهيم عوض) يرى جعيط أن الرسول لو قال للناس : إن القرآن نتاج تفكيره هو لفشلت الدعوة، وإن كان الرسول مقتنعا مع ذلك أن القرآن هو من عند الله، أي أنه كان واهما مخدوعا، يتصور ما لا حقيقة له، وهو ما يقوله المستشرق نولدكه.

والقرآن يردد، في اعتقاد هشام جعيط، ما جاء في كتب أهل الكتاب عن معجزات الأنبياء، رغم أن هذه المعجزات لا حقيقة لها، بل مجرد خرافة، لا صلة لها بينها وبين الواقع، وقد سبق أن قال في الجزء الأول (ص29) : إن معجزات الأنبياء من قبل لم توجد فعلا (؟) وإنما روي بعدهم أنها وجدت، وسرت القصة عبر التاريخ على أنها واقعة جرت. وأشار، والنقل عن إبراهيم عوض أيضا، إلى أنه لم يكن ثم كلام بين الله وموسى، ولا جدال بينه وبين إبراهيم، بل كل هذا من تأثير نزعة الأنسنة التي كانت عليها العقلية القديمة، والتي لم يشأ محمد ﷺ تخطئتها، رغم معرفته أنها خرافة، بل سايرها، انتظارا منه أن يأخذ التطور الذي أتى به مجراه، ويفيق الناس من تصديق تلك الخرافات. يا سلام!

وبالنسبة لأخذ الرسول عن حنفاء العرب القرآن وجه له الدكتور إبراهيم عوض هذا السؤال: لماذا لم ينبر أحد من الحنفاء، أو من أهل الكتاب فيقول له: ألست أنت الرجل الذي تعلم على أيدينا، وأخذت ما كنا نقوله ونقرؤه أمامه، ثم تأتي اليوم وتدعي النبوة؟ وبالنسبة للحنفاء الذين اتهم الرسول بأنه تعلم على أيديهم، فهم (كما يوضح إبراهيم عوض) إما أنهم أسلموا أو تبعوه، أو إذا كانوا قد ماتوا قبل بعثته ﷺ فقد دخل أبناؤهم في دينه، وأصبحوا من تلاميذه، ولم يحدث أن فتح أحد من هؤلاء أو أولئك فمه بالإشارة مجرد الإشارة إلى شيء من هذا.

ويعتقد جعيط أن التأثير النصراني في الرسول كان هائلا، ومن ثم على القرآن الذي ألفه، وهو هنا يردد ما يقوله المستشرقون حرفيا. وإذا كان الأمر كذلك كما يقول عوض فكيف نفسر تلك الكراهية العنيفة المتلظية التي يكنها النصارى له ﷺ؟ ولماذا كان الإسلام هدما شاملا ماحقا لكل أسس النصرانية، واتهاما مطلقا لرجالها بأنهم حرفوها، وخلقوا دينا غير الدين الذي أنزله الله على عبده ونبيه عيسى بن مريم عليه السلام؟

وهو هنا يردد ما قاله نولدكه وبلاشير، ويعقب الدكتور إبراهيم عوض على هذا الفهـم للقـرآن بقوله: يريد من وراء كلامه القول بأن القرآن إنما يعكس رأي الرسول في الناس من حوله بناء على مواقفهم منه، وبما أن مكة ليس فيها نصارى أو يهود يعادونـه فـإن القـرآن يخلـو مـن الآيـات التي تعيبهم وتعاديهم. والواقع، والكلام لإبراهيم عوض، أن هذا جهل مبين، إذ في القرآن المكـي حملـة على تأليه النصارى للمسيح عليه السلام (مريم: 34ــ 39 والزخـرف: 57ــ 66)، وحملـة أعنـف على اليهود لتكرر كفـرهم بـالله بعـد أن جـاءهم موسـى بالبينـات، ولاتخـاذهم العجـل وغـير ذلـك (الأعراف: 138ـ 171، وطه: 83ــ 98). فما قاله المستشرقان وتبعهما فيه هشـام جعـيط لا معنـى له.

ويزعم الدكتور جعيط أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام رسـالة محليـة، وهـذا محـض خطـأ، فمند السور الأولى نرى أن الدين الإسلامي جاء لكافة سكان الأرض، ومنهم العـرب: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: 92]. «ومَنْ حولها» تتسع فتشمل العالم كله يـا رجـل، نعـم لكـل شيء بداية، ونقطة انطلاق، والبداية هي مكـة، والقـرآن المكـي يقـول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سـبأ]، والقـرآن ملـئ بهـذا التوجـه العـالمي، ولكن الكثير من الناس لا علم لهم بكونية الإسلام. ألم نقـل إن القـرآن يترصـد مـا يضـمره النـاس ويتهامسون به، أو يكتبونه؟

الوحي كما يراه هشام جعيط

اتفق العلماء، وهم المتضلعون في اللغة العربية، لا أولئك الذين درسوا النحو العربي في السنوات الثلاث الأولى من التعليم الثانوي، ثم أصبحوا يفسرون القرآن، وهذه الطرق هي:

1) الرؤيا الصادقة، كرؤيا إبراهيم أنه رأى نفسه يذبح ابنه.

2) النفث في الرُّوع (بضم الراء)، ويعني القلب والخَلَد والخاطر، وفي الحديث الذي رواه ابن ماجة: «إن روح القدس (وهو جبريل) نفث في رُوعِي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

3) ما كان يأتي الرسول مثل صلصلة الجرس.

4) تمثل الملك في صورة رجل، كما يأتي جبريل للرسول في صورة دحية الكلبي، وهو صحابي حسن الصورة.

5) أن يتراءى له جبريل في صورته التي خلق عليها.

6) تكليم الله من وراء حجاب في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في المنام أيضا.

لا بد من التذكير هنا بمنهج الأستاذ جعيط في البحث، والمتمثل في المقاربة التاريخية التي تعتمد على النصوص، وعلى المقارنة والمقاربة الظواهرية. وبالنسبة للوحي يقول: ولا يعني التاريخ هنا تقديم الظروف الخارجية لنزول الوحي، كما ورد ذلك في السير والتواريخ بل استقراء القرآن أساسا، عندما يذكر ويصف تجربة الوحي لدى النبي، والقرآن هو المصدر التاريخي المعتمد الصحيح؛لأنه يرمز إلى ماهية الوحي، والظروف التي حفت ببدئه وتواصله، ولا يدخل في التفاصيل الدنيوية الفارغة، لعله يقصد كتب السيرة التي يرفضها مرة، ويقبلها أخرى.

فكيف كان الرسول يتلقى الوحي حسب الأستاذ جعيط؟

أبدى الرجل جهدا في هذا الفصل: «التجلي وانطلاق الوحي» وتوصل إلى ملاحظات قيمة، ولكنها يتيمة، عن تقبل الرسول للوحي، وذلك بالاعتماد أساسا على القرآن، وبصورة خاصة على الآيات الواردة في سورتي «التكوير والنجم».

فالوحي (كما يقول) قول من «رسول كريم» أرسله الله، وليس بالتالي قول الله مباشرة، وهذا الرسول «ذو قوة». وأخيرا فإن النبي ﷺ رآه «بالأفق المبين»، وأن قول هذا الرسول المبلغ الأمين هو الوحي القرآني الذي قد يكون ابتدأ مع الرؤية. هذا ما استنتجه من آيات سورة «التكوير»، وهي أقدم من سورة «النجم».

والنتيجة التي توصل إليها من قراءته لآيات هذه السورة أن الشخص (؟) الميتافيزيقي ليس الله ذاته، وإنما هو مبعوث منه، وأن محمدا (عليه الصلاة والسلام) رآه، وأن القرآن قوله، لكن عن الله، ثم أورد الآيات الأولى من سورة «النجم»، وقال: إن هذا المقطع أساسي؛لأنه يبين بكل نصاعة لحظة تجلي المخارق لمحمد (ﷺ) التي تلتها فورا لحظة الوحي، ثم تتلوها رؤية ثانية، وقال: إنه استعمل «رؤية»، وليس «رؤيا» لأنه اتضح له أن القرآن لا يقصد رؤيا في المنام، ولا حتى في حالة خاصة من انخطاف وغير ذلك، بل رؤية بالبصر يصدقها العقل، ولا يخدعها الخيال، رؤيتان في الواقع الفضائي ــ الزمني بينتان واضحتان تمام الوضوح، وبالوعي الكامل.

هنا تخلى الدكتور جعيط عن «المعطى الوضعي أو العلماني» وعاد إلى «المعطى الإيماني»، وهو في معركة مستمرة مع هذين المعطيين في كتابيه عن السيرة النبوية، ولا ندري لمن الغلبة؟ ولكن غلبة هذا أو ذاك لا تهمنا إطلاقا.

ثم يدخل الأستاذ جعيط في معركة مع الضمائر التي تكاثرت أمامه، وعلى من تعود، والقاعدة أن الضمير يعود على أقرب مذكور قبله، فالضمير في ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 5] يقول: «الهاء» قد ترجع إلى الوحي، أو إلى محمد (عليه الصلاة والسلام): يشك في ذلك، ومتردد بين عودة الضمير إلى الرسول أو الوحي. وجلي أنها تعود على جبريل (يسميه: «جبرائيل»، كما ينطق في اللغة الفرنسية، فأيهما أخف في النطق؟)، فهو الذي علم الرسول، والهاء كما لا يخفى مفعول به لـ«عَلَّم»، أما ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: 10] فقد مثلت كما يذكر إشكالا للمفسرين (لم يذكرهم): أهو الله، ويكون الفاعل مستترا أم جبريل (وهذه الصيغة تدل على المساواة كما لا يخفى)؟ وقال: نحويا يكون هذا الكيان هو الذي أوحى، ويكون محمد ﷺ عبده، وهو في الحقيقة عبد الله. وأورد رأي بعض المفسرين (لم يذكرهم أيضا، ومن عادته أن لا يعتمد على التراث) اعتمادا على عائشة من أرجع الضمير المستتر إلى الله بخصوص هذه الآية فقط، أي فأوحى «الله» إلى عبده ما أوحى، ويؤكد أن هذا لا يعني البتة أن الله هو الذي تجلى. ومنهم (أي المفسرون) من قال: إن هذا الكيان ذا (؟) القوة هو الله ذاته (ليس في كل نوره)، إذ لا تدركه الأبصار، كما ورد فيما بعد في القرآن.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ : الضمير في «أوحى» و«عبده» يعود إلى الله، وواضح أن جبريل أوحى إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحاه الله إليه من القرآن في تلك النزلة، بوصفه رسولا بين الله ونبيه محمد ﷺ، ويفهم من سياق الآيات السابقة لهذه الآية، فالضمير في «علَّم» و«دنا» و«كان» يعود على جبريل، أما فاعل «أوحى» فهو الله، وهذا الفهم يتماشى مع ما يريده الدكتور هشام، وهو أن الله لم يتجل للنبي أبدا، وهذا هو رأي الجمهور.

ولسنا ندري من أين جاء الغموض في هذه الآيات البينات؟ وأين يوجد التردد بين الله وجبريل، فالأمر واضح: أرسل الله للرسول أمرا عن طريق جبريل، وهذا الأخير بلغ ذلك الأمر، والقرآن (كما قال الدكتور جعيط) يصف التجربة الأولى حسب رأيه، كما برزت للنبي، وليس لأنها مباغتة وأولية (كما يشير) قد تكون مباغتة للمكذبين، أما الرسول فقد سبق له أن مر بتجربة الغار (والدكتور جعيط لا يعترف بحديث الغار) وأصبح أمر الوحي لديه ميسورا. ويبدو من هذه الآيات الأولى من سورة النجم أن القرآن يريد أن يوضح للمشركين كيفية الوحي، ويقرب الأمر إليهم، مبينا أن الوحي وقع للرسول بهذه الطريقة وغيرها. وصحيح (كما يقول الأستاذ جعيط) أن الوحي مصدره الله، وأن الناقل هو مبعوث الله (أي جبريل) كما ورد في سورة «التكوير»، وكما سيرد فيما بعد في السور المدنية.

كنا نظن أن الأمر أصبح واضحا، ولكن هشام جعيط يعود فيقول: ليس من المستحسن أن يعتبر القرآن في هذه الفترة أن محمدا «عبد» هذا الشخص (؟) الماورائي (يقصد جبريل)، الذي يبقى غامضا في هويته، فهو بين الله وبين الملك أو امتزاج لهما، وهذا الشخص (؟)﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم: 8] هو الذي أوحى، سواء من لدنه، أو عن الله. ثم يقول: هذه التجربة الأولى مشوبة بكثير من الغموض. والحق أن لا غموض ولا تردد، ولا امتزاج بين الله وجبريل، فالله سبحانه وتعالى هو الله، وجبريل هو الملك والمبعوث إلى النبي، ولم يكن الرسول ﷺ غافلا عن معرفة ربه حتى يتركه، ويعبد جبريل، كل ما في الأمر أن الله أوحى للرسول عن طريق جبريل، وطرق الوحي وتبليغ القرآن للرسول جاء بطرق متعددة كما رأينا أعلاه.

ولم يكن القصد من هذه الآيات من سورة النجم (وهي الثالثة والعشرون في ترتيب السور) وصف انطباعات محمد(ﷺ) ونفسيته وتقبله لهذا الحدث العظيم الاستثنائي، هذا الأمر صحيح بالنسبة لحديث الغار الذي يرفضه الأستاذ جعيط، وللآيات الواردة في سورتي المدثر والمزمل.

ثم يستعصى عليه التفريق بين «أوحى» و«قول» في قوله تعالى في سورة «التكوير» وهي السابعة في ترتيب النزول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: 19] يقول: وكأنه من لدنه (؟)، سوى أنه ينعت بالأمين، وفي هذا المعنى ما يشير إلى التبليغ عن الغير. أما عن مفهوم الوحي (يقول) فيكاد يكون مستعصيا على الفهم: أهو كلام خارجي يسمع، وفي دنو الشخص من محمد ما يبرر ذلك، أم عملية خاصة وخارقة تُدْخِل الكلام، أو حتى المعنى فقط في نفس محمد ﷺ وتطبعه فيه؟

الوحي هو بالفعل عملية خارقة، ويستحيل على العقل إدراك كنهها، ولكن عملية الوحي تشمل اللفظ والمعنى معا. أقول هذا لأنني سمعت من يقول: إن الرسول تنزل عليه المعاني، فيصوغها بألفاظ من عنده. ولو قارنا بين الحديث والقرآن لوجدنا الفرق شاسعا، ولكن هذا موضوع آخر.

ويمكن أن نقول : إن الوحي أوجده الله بكيفية ما في قلب الرسول، والقول هو الملفوظ بالفعل، ونعني به القرآن، وإذن فالوحي تحول إلى قول، والقول مكون من ألفاظ ومعان، كما هو معلوم، والرسول يحيله إلى كتبة الوحي، فيقيِّد ويسجِّل، ويسمعه الرسول إلى المؤمنين.

ثم حاول الأستاذ جعيط تعريف الوحي، وذلك بالرجوع إلى اللغة، ويعني الإلهام، وهو من جهة أخرى رسالة داخل النفس، أو أمر بدون وعي (لعله يقصد الآية: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ من المتلقي، ومن وراء ذلك فكره، أن الله يمسك بالأنفس والأفكار والإرادة، لكنه لا يتكلم هو ذاته فيها بالصوت المتموضع في الزمان والمكان، والله منزه أن يوحي مباشرة للنبي، وهو متعال جدا، ولا يمكن تصوره. كل هذا صحيح وإنْ إلى حد.

ثم يقول: ومن هذه النظرة القرآنية إلى الشخصية الإلهية (تعالى الله عن التشخيص ويمكن أن نقول: «الذات الإلهية») المتقدمة على الأديان السابقة، يبدو من المستحيل أن يكون الله ذاته قد تجلى للنبي، أو أن النبي اتصل به مباشرة في المعراج مثلا، وهذا صحيح، ولكن عروج الرسول إلى «سدرة المنتهى» اتفقت عليه الأحاديث الصحيحة، ولو أن الإيمان به يكون إجمالا . ويرى الأستاذ جعيط أن هذه مرة أخرى، أو تجربة ثانية للوحي، بينها القرآن بما لا يقل وضوحا عن التجربة الأولى السابقة، والتي ذكرت في الآيات الأولى من سورة «النجم» وقد كانت هذه المرة «نظرة بالبصر» كما يقول، وأن هذا حصل عند «سدرة المنتهى». وينفي الأستاذ جعيط أن يكون موضعا بمكة، كما رأى المستشرقون (لقد خالفهم هذه المرة). يقول: بل هي إذ بدت لمحمد (عليه الصلاة والسلام) كمشهد واقعي بديع وخارق، فإن كانت كذلك

، ولم تكن بمكة، أليس من المعقول أن يكون المكان المجازي في السماء العليا؟ بيد أن الدكتور جعيط يقول عن «سدرة المنتهى»: هي رمز لتناهي الأرواح والوجود كله، وانتهائها في الفضائي ـــ الزماني، وبالتالي الله هو اللامتناهي، ولا يليق باللامتناهي إلا المكان الأرقى والأعلى. أليس كذلك؟ وأشار جعيط إلى أن علماء المسلمين فهموا إلى حد ما هذا الأمر في قصتهم (؟) للمعراج التي هي اختلاق (؟) ذو قيمة دينية رفيعة. أي أنهم حسب رأيه أوجدوها من عند أنفسهم، لكي يفسروا هذه الآيات، وهذا محض افتراء عليهم، فالمعراج ثابت بالأحاديث المسندة (وإن كان جعيط يرفض الحديث المسند. غريب!)، وطرقها متعددة، ورأى أن المستشرقين لم يفهموا «المنتهى» وحطوا من قيمته، بينما ترد العبارة نفسها في سورة «النجم» في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: 42].

ولاحظ جعيط أن النبي في هذه الرؤية الثانية توقف بصره عند هذا «المنتهى» منتهى المصائر: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: 17]. ولا يعني ذلك فقط عدم الغلط والاشتباه، بل قد يعني، كما ذكر ذلك المفسرون، التحديق في الموضوع بقوة كي لا يهرب البصر إلى اللامتناهي الذي من خلف. ونبه الأستاذ، وله ذلك، إلى أنه لا يوجد خلف، ولا أمام، ولا فوق، ولا تحت، فهو ما وراء العالم، وميدان الله، إذ ليس لله ميدان ولا مستقر، ولا حيز، ولا مكان، كما أن العبارة القرآنية: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: 18] لها دلالة عميقة، ولم يقل لنا ما هذه الدلالة العميقة، والقرآن يشير إلى أن الرسول رأى في ليلة المعراج آيات الله العظمى التي لا يحيط بها الوصف، أي غير «سدرة المنتهى» و«جنة المأوى» وما غشى السدرة من البهجة والجلال.

والواقع كما يرى الطاهر ابن عاشور أن القرآن يخاطب المشركين فيقول: إن كنتم تجحدون رؤية جبريل في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها، إذ رآه في العالم العلوي مصاحبا، فهذا من الترقي في مراتب الوحي وتجليه أيضا.

ومن خلال سورة «التكوير والنجم» توصل الأستاذ جعيط إلى نتيجتين، وهما:

1) رأى محمد ﷺ جبريل الذي نعت بـ«ذي قوة» و«شديد القوى» ككيان يدركه الحس، معلقا في الهواء كشخص هوائي (؟) ورآه ثانية بالبصر، والأمر واضح، فهي ليست رؤيا في المنام، بل رؤية بعيني الرأس. وكان يمكن هنا الاستعانة بالأحاديث الصحيحة الواردة في السيرة، والتي تصف ما سماه جعيط بالشخص الهوائي، وإن لم يوافقه ناقدوه على هذه التسمية.

2) هذه الرؤية ليست من الخيال، إذ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. يقول: وفعل «رأى» يرجع إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وليس إلى الفؤاد، ومعنى الآية (كما فسرها الأشقر في «زبدة التفسير» ص700ـ 701): أي أن فؤاد محمد صادق، فتكون عينه أصدق، هذا هو المعتاد هند البشر، وقد رأى جبريل بعيني رأسه، فكيف تجادلونه فيما يراه؟

وقفنا طويلا عند هذا الفصل؛لأنه مركزي في الدين الإسلامي، فالتصديق بالوحي يعني التصديق بنبوة محمد ﷺ، وبالإسلام عموما، وقد اعتمد الأستاذ جعيط على القرآن، تاركا ما جاء في السيرة والأحاديث الصحيحة التي تصف طرق الوحي، ولا شك أن هذه المرويات مكملة وموضحة لكيفية تلقي الوحي، وإنْ إلى حد.

إذن فالآيات الأولى من سورة «النجم» تعرض الصور الأولى التي تلقى بها النبي الوحي، وأراد القرآن من جهة أخرى أن يبين للمشركين كيف تلقى الرسول هذا الوحي، وهم الذين لم يصدقوا وقوعه، ورأوا أنه من باب المستحيل، ومن جهة أخرى فإن هذا البعد الذي يساوي ذراعين تقريبا بين الرسول والملك جبريل، هو (كما يقول الطاهر بن عاشور) في أوائل عهد النبي ﷺ بالنبوة، فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتحمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة، رفقا بالنبي ﷺ أن لا يتجشم شيئا يشق عليه، ويبدو أنه بعد حديث الغار، وما كان من غط وإجهاد للنبي، والحالة الموصوفة في سورتي «المدثر والمزمل»، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5] اعتاد النبي الاتصال بجبريل، وأصبح الوحي غير شديد عليه، وهو في المدينة، فكان يأتيه في صورة رجل، كما في حديث عمر قال: دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد...، وأن النبي قال لهم بعد مفارقته: يا عمر، أتدري من السائل؟ قال عمر: الله ورسوله أعلم. فقال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

يبدو أن الوحي كما فهمه جعيط مر بمرحلتين: الأولى كان الاتصال بين الرسول وجبريل مباشرا، وكان يسمع الأصوات عن قرب، وهذا ما فهمه من الآيات الواردة في سورتي «التكوير والنجم»، وفي مرحلة ثانية أصبح الوحي من داخل الرسول، ينزله الله بواسطة جبريل على قلب الرسول، فيذكر القرآن. كما يقول إن التنزيل وحي، وإن الوحي يجري في داخل الضمير، أي باختراق للنفس النبوية، دون أن يكون اللقاء الأولي بالصوت الخارجي استثناء. ومعنى هذا أن جبريل اتصل بالرسول مرتين، وانتهى الأمر، وأصبح فيما بعد بتلك الطريقة التي ذكرت. ويرى جعيط أن هناك فصلا بين الوحي كعملية تبليغ وتأثير، وبين القرآن ذاته، فالله أوحى القرآن، لكن القرآن نتيجة الوحي. واستشهد بالآية: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: 3]. فالقرآن هو الموحى به، وليس الوحي ذاته. كل هذا صحيح، ولا يوجد خلاف بينه وبين كتّاب السيرة، إلا أن الاتصال بين النبي وبين جبريل لم ينقطع بالصور التي ذكرت وبغيرها من الصور الأخرى التي يبدو أنه يرفضها، وهي التي ذكرناها أعلاه.

بيد أنه يمكن إبداء بعض الملاحظات على هذا الفصل الذي لم يخرج فيه الأستاذ جعيط عن المعطى الديني كما يبدو:

1) احتار هشام جعيط ،كما يقول الدكتور رضوان السيد، في كيفيات الوحي، في حين أنها واضحة في القرآن، والأستاذ جعيط يقول : إنه يعتمد على استنطاق النص القرآني وحسب في «تفهم» ذلك، فقد جاء في القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 15]، أي بطريقة الإلهام في اليقظة والمنام، أو يسمع صوتا، ولا يرى صورة، أو عن طريق الملك (كما يقول المفسرون، ومنهم الطبري، الذي يقدره جعيط). فأين المستنكر غير المقبول في الحديث الثاني في أول صحيح البخاري (حديث بدء الوحي): عن عائشة عن الحارث بن هشام أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي، فقال: «أحيانا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» (رواه البخاري)؟

يقول رضوان السيد: فهو رغم رفضه للتراث التفسيري لا يصل إلى أكثر من ذلك عندما يعرض للمسألة من خلال مشهدي التجلي والانكشاف (كما يقول) في سورتي «التكوير والنجم». ففي أولى الآيات تصريح أنه بلغه الوحي عن طريق «رسول كريم» و«مطاع ثَمَّ أمين»، أي أنه مؤتمن على ما يبلغ، وفي الثانية ليس هناك إبهام في قوله عز وجل: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: 10] لمن يعرف اللغة العربية، فالضمير في «أوحى» وفي «عبده» يعود إلى الله الموحي، وليس إلى جبريل، بل الملك هو الواسطة. أراد الدكتور السيد أن يقول: ما كان للسيد جعيط أن يجهد نفسه في أمور واضحة، إنْ من خلال القرآن أو من خلال الأحاديث الصحيحة. ومستواه في اللغة العربية اتضح من خلال سوء فهمه للضمائر على من تعود.

2) استبعد الأستاذ جعيط أن يكون الوحي من الله مباشرة، وهذا صحيح إلى حد ما، ولكن القرآن يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: 15] فقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ لا تعني أن الله يكلم أنبياءه مباشرة، وهو ما ذهب إليه الدكتور جعيط، ولكن هذا الكلام يصدر عن الله، وبينه وبين رسوله حاجز أو حجاب؛ لأن المباشرة مستحيلة، ولأن الخالق ليس كالمخلوق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11]. وهو ما وقع بالفعل بين الله وموسى، وكذا بالنسبة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فرؤيا الرسول لله مباشرة لم تتم في الإسراء والمعراج كما أكدت السيدة عائشة ، فكلام الله لأنبيائه مباشر، ولكنهم يسمعون ولا يرون.

3) إن حديثه عن التجربة الثانية للوحي (حسب رأيه) تحدث عنها كما لو كانت في العالم العلوي، ورفع من منزلة هذا العالم إلى ذروة التقديس. وهذا صحيح، ولكنه رفض أن تكون تمت ليلة الإسراء والمعراج. وبصفة عامة، فهو ينكر المعجزات، وهذا يتنافى مع ما هو معلوم ومشهور ومسلم به لدى الجمهور، ومذكور في كتب السيرة وكتب الصحاح، ولكنه ينعت ما جاء في كتب السيرة بالخرافات.

4) من البديهي أن لا نشخص الله، ونقول عنه: «الشخص الإلهي» عِوَض الذات الإلهية، فالله ليس بشخص ولا بجسم، ولا يدرك كنهه العقل، ولا يعقل أن يكون الله مشخصا ومتعاليا في نفس الوقت، وكذلك الأمر بالنسبة للملك جبريل عليه السلام، فهو من مسائل الغيب، وهو يتشكل للرسول أثناء الوحي في صور مختلفة. ولهذا نسميه باسمه كما سماه القرآن: جبريل أو الملك. وفي النص الذي كتبه الأستاذ جعيط تعثُّرٌ في التركيب والتعبير، ولهذا تمنى الدكتور رضوان السيد أن لو كتب بالفرنسية لكان أجدى وأنفع.

5) أشرنا إلى أن الدكتور جعيط يرفض المعجزات، ومنها الإسراء والمعراج، ولكننا نجده يقر في هذا الفصل: «التجلي وانطلاق الوحي» بالمعجزات، ومنها الإسراء والمعراج، ومشاركة الملائكة في القتال إلى جانب المسلمين في عزوة بدر، وكان الرسول يرى كل ذلك بأم عينيه.

6) يطل في بعض الأحيان «المعطى الإيماني» من حين لآخر في كتاب «الوحي والقرآن والنبوة»، وكأنه نسي- أنه كما يقول يتحدث عن الإسلام والقرآن من معطى علماني. مثلا ينعى على المستشرقين لماذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ لأنه نبي ما في ذلك شك. ويقول في موضع آخر: أما بالنسبة لنا كمسلمين معاصرين، فلا تضارب بين صفة الموحى إليه (أي محمد) وحقيقة الوحي، وبين صفته كشخصية فذة من طراز أعظم مؤسسي (؟) الأديان، وفي رأيي الخاص أكثرهم قامة. ويقول عن القرآن: وحده القرآن جمع بين دقة التعبير، والكلمة المثيرة، والعمق الكوسمي، والوضوح الكامل البين، وهذا من أهم خصائصه.

7) لا بد هنا من التذكير بالمضمون الوارد في القرآن الكريم، وهو ما يتغافل عنه المتحدثون عن كتاب الله. هل يعقل أن هذا الحشد من المعلومات المتعلقة بحياة الإنسان، وخلقه في بطن أمه ومصيره، وكذا علاقته بالإنسان والكون والطبيعة هي من عند محمد ﷺ، وهو الرجل الذي عاش في القرن السابع الميلادي، وفي بيئة لا يمكن أن نتصور أنها ترقى إلى هذه المضامين الرفيعة، وهذا الأسلوب الذي أعجز بلغاء عصره، وقد كانوا من فحول البيان؟ ومع ذلك يريد بعض الكتاب أن يضع القرآن في عصره، ويسرد علينا المؤثرات التي تأثر بها من الثقافات والأديان السابقة، ونسوا أن القرآن فوق التاريخ، وفوق العلم الوضعي،

ولا يمكن بحال إخضاعه لمناهج البحث التي توصل إليها البشر، وهي مناهج قد يتجاوزها من يأتي بعدها، نسوا كل هذا أو تناسوه أيضا، وأقبلوا على كتاب الله باعتباره نصا بشريا. نعم أصبح بشريا بعد أن تفوه به الرسول، وفهموه كل على حسب اجتهاده، ولكنه يبقى رباني المصدر، يستعصى على الإحاطة بما جاء فيه من معلومات متنوعة، وحتى في كثير من الأحيان فهمه. وأقول : إنني لم أقرأ تفسيرا للقرآن حتى الآن يشبع رغبتي في فهم كتاب الله تعالى، وذلك منذ الطبري حتى الآن، مرورا بالرازي ووصولا إلى الطاهر بن عاشور، ووهبة الزحيلي في «التفسير المنير». وسيبقى الناس يفسرون القرآن، وسيبقى القرآن ينفلت من بين يدي أصحاب المناهج، إنْ في تحليل النصوص أو في المقاربات الأخرى التي لا تحصى.

لا نطيل في مسألة هذا البحر الزاخر بالعلوم على اختلاف أسمائها، فقد كفانا الدكتور موريس بوكاي مؤونة الكتابة حوله ظاهرة القرآن الفريدة، وخاصة من الناحية العلمية، يقول في كتابه: «دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة»:

إن أول ما يثير الدهشة في نفس من يواجه نصوص القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية المعالجة، وعلى حين نجد في التوراة الحالية أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ، ولو كان قائل القرآن إنسانا فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره؟

وقال في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم»: لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم

فلم تكن هناك حاجة إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر «التكوين»، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل فإننا نجد نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

ولكن هؤلاء الكتاب لا يعودون إلى مؤلفات بوكاي، ولا يلتفتون إليها؛ لأنها صادرة عن رجل عميق الإيمان بالله ورسوله، وقد هداه العلم إلى ذلك، وهم يريدون كاتبا أو مستشرقا يخالف المعتاد والمشهور، قَصْدَ خلخلة الثقة ونسف الاطمئنان إلى أي شيء يتعلق بديننا ورسولنا وقرآننا وتراثنا. ومن كان على شاكلة الدكتور جعيط لن يرضى عن شيء، ولن يسلم بأي شيء أجمعت عليه الروايات، حتى لو انطبقت السماء على الأرض كما قال الدكتور إبراهيم عوض.

8) إن فهم الدكتور جعيط لما ورد في سورتي «التكوير والنجم» حول الوحي لا يعارضه فيه أحد، فقد انطلق الرجل من القرآن، وحاول جاهدا أن يتفهمه، ولم يمنعه الاقتصار على القرآن من الرجوع إلى كتب السيرة، وإلى سيرة ابن هشام بالذات، خاصة في الكيفية التي كان فيها جبريل في الفضاء عندما تجلى للرسول، وهو الذي رفض أن يعود إلى كتب السيرة، وقد نعت ما جاء فيها بالخرافات. والحق أن كتاب السيرة قد تساهلوا في ذكر كل ما هب ودب من الأخبار المتعلقة بحياة الرسول. والملفت للنظر أن كتاب السيرة كانوا على علم بذلك، إذ كان العلماء يتشددون في الحديث، ولا يقبلونه إلا بعد دراسة وتمحيص، أما الأخبار الخاصة بالسيرة النبوية فكانوا يتساهلون فيها ما دامت لا تحلل حراما ولا تحرم حلالا. وحتى الحلبي، الذي جمع فأوعى من الأخبار، كان على علم تام بأن أخبار السيرة فيها الصحيح والسقيم والضعيف، وهو قابل للجمع بين هذه الأخبار، ولا يرى بأسا في حشو علوم أخرى لا علاقة لها بالسيرة من بعيد أو من قريب. ولكن هذا لا يعني عدم الرجوع إلى كتب السيرة عند البحث من جديد في سيرة الرسول، أو التهاون بما ورد فيها كلها، وخاصة غزوات الرسول وعلاقته بالقبائل العربية واليهودية في عهده ﷺ، كما سنرى .

9) أخذ العليبي على الأستاذ جعيط سكوته، وهو يفسر الآيات الأولى من سورة «النجم»، عما يسمى بقصة الغرانيق، وهي الزعم بأن الشيطان ألقى على لسان الرسول بعد قراءته للآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم] قوله: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى». وقد أبطل الشيخ محمد عبده هذه القصة، واعتبرها مكذوبة، لأن لفظة «الغرانيق» غير موجودة مطلقا عند عرب الجاهلية، أما لماذا سكت عنها جعيط، فالأمر يتعلق برفضه لكل الأخبار، لأنه لا يثق فيها، وحسنا فعل هذه المرة مع قصة الغرانيق.

ونريد هنا أن نفتح قوسين، ونتوجه إلى الأستاذ فريد العليبي، وننبهه إلى أن قصة الغرانيق قصة ملفقة (لم يذكرها الكثير من المفسرين في تفسيرهم لسورة «النجم»، ومنهم العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»، ولا أساس لها من الصحة (ولو رواها الطبري، الذي كان كالغول يلتهم كل ما يجده أمامه، كما قال أحد المستشرقين وهو يتحدث عن جمعه لكل الأخبار الصحيح منها والسقيم) لأنها تتعلق بعصمة النبي، وعدم وقوعه في الخطأ، فيما يتعلق بالعقيدة، وبصفة عامة في الأمور التي يبلغها عن ربه. أما فيما يخص الأمور الدنيوية فيمكن أن يخطئ كأي إنسان، كما جرى في مسألة تأبير النخل المعروفة.

قصة الغرانيق وضعها الزنادقة

سبق لي أن تعرضت إلى قصة الغرانيق في كتابي: «أضواء على كتب السيرة النبوية» وقلت: قصة الغرانيق مكذوبة من أساسها، وقد نبه ابن سعد، وهو ثقة، في «الطبقات الكبرى» فقال: إنها من وضع الزنادقة، وذكرها غير واحد من كتاب السيرة (لم يذكرها ابن إسحاق/ ابن هشام في السيرة النبوية) والمفسرين لتفسير الآيتين في سورة «الحج» (52ـ 53) وغيرهما متناسين منافاتها لعصمة النبي ﷺ، فما كان من المستشرقين إلا أن وجدوها فرصة لنقض عصمة محمد عليه السلام، زاعمين أنه أراد مجاراة قومه، قَصْدَ مصالحتهم بالتقرب إلى آلهتهم، وعد بلاشير الآيتين الملفقتين من سورة «النجم» في ترجمته للقرآن.

ومن الذين أبطلوا قصة الغرانيق وعدوها مكذوبة على النبي نجد كاتبين كبيرين: أحدهما قديم، وهو القاضي عياض، والثاني حديث، وهو محمد حسين هيكل.

وقبل أن نتعرض لردود هذين الرجلين يحسن بنا أن نقدم هذه القصة الملفقة التي نسبها الزنادقة للرسول، لكي يبينوا أنه يكذب ويخطئ في التبليغ عن ربه، وبالتالي فهو ليس بنبي: روي أن النبي ﷺ لما قرأ سورة «والنجم»، ووصل إلى الآية: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] قال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى،

ويروى: «ترتضى»، وفي رواية: «إن شفاعتها لترتجى وإنها مع الغرانيق العلى»، وفي أخرى: «والغرانقة العلى تلك الشفاعة ترتجى». فلما ختم السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار لمّا سمعوه أثنى على آلهتهم، وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو أنزل عليه شيء يقرب بينه وبين قومه، وفي رواية أخرى : أن لا ينزل عليه شيء ينفّرهم عنه، وذكر هذه القصة، وأن جبريل عليه السلام جاءه فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال: «ما جئتك بهاتين»، فحزن لذلك النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى تسلية له: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ ﴾ [الحج] وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ ﴾ [الإسراء].

يبطل القاضي عياض هذا الخبر الكاذب بالنظر إليه من ناحيتين:

1) ضعف السند والمتن. يقول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أُولِعَ به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولَعون بكل غريب، المتلقفون كل صحيح وسليم. ونبه القاضي عياض إلى ضعف نَقَلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف الأحوال التي قيل فيها، فمنهم من يقول: في الصلاة، ومنهم يقول: في نادي قومه... إلى آخره.

2) عصمة النبي ﷺ، فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته من مثل هذه الرذيلة، أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى ينهاه جبريل عليه السلام، ذلك ممتنع في حقه ﷺ (إنظر «الشفاء» ج2 ص 124 ــ 135 مط الاستقامة، مصر، دون تاريخ).

وتتمثل حجج محمد حسين هيكل في بطلان قصة الغرانيق فيما يلي:

1) إن عودة المهاجرين من الحبشة يعود إلى الثورة التي اندلعت في هذه البلاد ضد النجاشي، فأرادوا العودة إلى بلادهم، خاصة وقد سمعوا بإسلام عمر، وما لعمر من دور في تدعيم موقف الرسول.

2) الاحتجاج بالآيات المشار إليها مقلوب. يقول هيكل: إنه إن كان الشيطان قد ألقى في أمنية الرسول حتى لقد كان يركن إليهم شيئا قليلا، فقد ثبته الله فلم يفعل («حياة محمد» ص164).

3) تهافت القصة علميا من حيث تعدد الروايات فيها

4) سياق سورة «النجم» يأبى مثل هذه الجمل النافرة، فالسورة فيها شتم للأصنام وذم لها، فكيف يجتمع المدح والذم في نفس الوقت؟

5) حجة لغوية، ذكرها الإمام محمد عبده، وتتمثل في أن العرب لم يرد في أشعارهم، أو في خطبهم أنهم سموا آلهتهم بـ«الغرانيق».

6) حياة محمد نفسه. يقول هيكل: فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرَّب عليه الكذب قط، حتى سمي بالأمين. كيف يصدق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه؟ هذا أمر مستحيل.

وهكذا يبطل كل من العالمين أسطورة الغرانيق من أساسها.

ونعود إلى السيد العليبي الذي يورد قصة الغرانيق كما لو كان متحققا من وقوعها يقول: والسؤال هو لماذا سكت (يقصد جعيط) عن هذه المسألة، رغم أنها تقع موقع القلب من البحث الذي قدمه لنا؟ إن الرد على أسئلة من قبيل: «هل يمكن للوحي أن يخالطه كلام مصدره غير إلهي بل شيطاني؟» هام دونما شك، كما أن البحث في موضوع الآيات الشيطانية من زاوية غير تلك التي قدمها لنا النص المقدس يفرض ذاته على الباحث، فإذا كانت لمحمد مثلا أمنية استغلها الشيطان فنفذ من خلالها، وأدخل على الوحي تحويرا، فما هي تلك الأمنية؟

وأمنية النبي، حسب العليبي، وحسن حنفي، الذي استشهد برأيه في المسألة، تتمثل في رغبة الرسول في جمع شمل العرب، وتكوين دولة وطنية في الجزيرة العربية، فما كان منه إلا أن مد يده إلى المشركين بمدح آلهتهم لمناصرته، خاصة ضد اليهود الذين كانوا يعرقلون مسيرته السياسية.

لسنا ندري ماذا يقصد السيد العليبي بوقوع الآيتين المكذوبتين على الرسول «موقع القلب». أفهم مما يقوله السيد العليبي أن الرسول لم ينزل عليه الوحي، وأنه ادعى النبوة، وهو كاذب في ادعائه، وقصة الغرانيق أسقطت نبوته بالضربة القاضية ما دامت هي «موقع القلب» وأن النبي كان مجرد زعيم سياسي يريد تكوين دولة هاشمية، كما قال الآخر في مصر، وهكذا نعود إلى شنشنة المستشرقين، وإلى بلاشير بالذات الذي اعتبر مدح الأصنام من القرآن في سورة «النجم».

ونذكّر الأستاذ العليبي بأن ما قاله هو في خصوص دفاع جعيط عن النص القرآني وتمجيد طابعه العقلاني واستبعاد المسائل التي يثير تمثلها العقلي مشكلات تستعصي على الحل، مثلما فعل السيد جعيط بمسألة المعجزات، يمكن أن يؤديا في نهاية المطاف لا إلى الحفاظ على المقدس، وإنما إلى تلاشيه، فالبناء إذا تهدم ركن من أركانه أضحى مهددا في مجموعه بالخراب.

وبالعكس إذا أضيف إلى القرآن شيء مما لم يوح به الله إلى رسوله أضحى مهددا في مجموعة بالخراب أيضا، بمعنى أن القرآن كله ليس وحيا من الله، وهذا ما يهدف إليه المستشرقون من إيراد قصة الغرانيق المكذوبة. ونشير بسرعة أن لو كان الرسول يريد مُلْكا أو جاها لقبل عرض المشركين عندما طلبوا منه أن يترك شتم آلهتهم، ويكف عن دعوتهم إلى التوحيد، وهم مستعدون لتنصيبه ملكا عليهم، ولكنه قال قولته الشهيرة: والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، وكان شعاره: «لكم دينكم ولي ديني» عندما صمموا على رفضهم الدخول في دين الله، وقد دخلوا أفواجا في الإسلام فيما بعد طائعين.

السيرة الجعيطية تحولها الصاعقة الرعدية إلى رماد

لست وحدي أقول: إن السيرة النبوية التي حبرها جعيط لم تأت بجديد يذكر، وأقول بكل تأكيد إنه لم يضف شيئا إلى مكتبة النبوة التي هي في غنى عما ألف وكتب، ولم أجد من نوه بمشروع جعيط في السيرة النبوية، إلا من أشرت إليه في فقرة سابقة بعنوان «إن الطيور على أشكالها تقع».

السيرة النبوية لجعيط وراي بعض الكتاب فيها

نقدم فيما يلي آراء بعض الكتاب الذين تناولوا بالدرس ما كتبه جعيط حول السيرة النبوية، وهم من تونس ومصر ولبنان، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنهم مختلفو المشارب والنزعات، وهم: الدكتور فريد العليبي أستاذ الفلسفة بالجامعة التونسية، وأحد رواد العلمانية في تونس، له كتب ودراسات منشورة، واهتم بنقد كتاب جعيط: «الوحي والقرآن والنبوة»، وعنوان دراسته: «قراءة نقدية في كتاب هشام جعيط: الوحي والقرآن والنبوة». والثاني الدكتور إبراهيم عوض، كاتب ومفكر إسلامي مصري له عشرات الكتب والدراسات، سخرها للدفاع عن الإسلام وأباطيل خصومه،نشر الكثير منها على الإنترنت (ويسميه المشباك) أستاذ بجامعة عين شمس، وقد اهتم بنقد «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة» وعنوان دراسته: «المخزاة الجعيطية في كتابة السيرة النبوية»، وله دراسة أخرى بعنوان «هل كان اسم الرسول قثم أم كان اسمه محمد؟». والثالث هو الدكتور رضوان السيد، مفكر لبناني، وأستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية، وعنوان دراسته: «القرآن والوحي والنبوة- قراءة في كتاب هشام جعيط». والدكتور سامي براهم أستاذ الحضارة العربية بالجامعة التونسية، وعنوان بحثه: «كتاب هشام جعيط حول السيرة النبوية: العقل الوضعي قارئا للإسلام». وسمير ساسي، أديب وإعلامي وباحث جامعي في الحضارة العربية.

والناظر في نزعات هؤلاء الباحثين واتجاهاتهم الفكرية يلاحظ (باستثناء الدكتور إبراهيم عوض والدكتور رضوان السيد) أنهم من العلمانيين، وبعضهم ينشر في مواقع لادينية (اللادينيون العرب: العليبي مثلا)، وبقطع النظر عن هذا وذاك فالسؤال: ماذا قال هؤلاء الكتاب في مشروع السيرة النبوية الذي أقدم على إنجازه الدكتور هشام جعيط؟

الناحية الأسلوبية واللغوية

اتفق معظمهم على أن أسلوب جعيط في الكتابة يتسم بالارتجال والتعثر، وعدم التدقيق في اختيار الألفاظ المناسبة لما يريد أن يعبر عنه، ورصد له الدكتور إبراهيم عوض جملة من الأخطاء اللغوية والتركيبية الفظيعة، بالإضافة إلى الركاكة والتواء العبارة مما يقرب من العجمة، وذكر العبارة التالية التي توحي بأننا أمام طالب أجنبي حديث عهد بتعلم العربية، فهو لم يتقنها بعد. قال جعيط: «وهنا على قبر وفي مسجد الرسول المؤسس للدين والهوية ولتاريخية كبيرة في مسجد المدينة، وهو بصدد البناء تم لقاء بين عبد الملك وبين سعيد بن المسيب» (ص34)، فهي عبارة لا تخلو من عسر التركيب والتوائه، فكأن كاتبها غير عربي.

وأتى الناقد عوض بجملة من الأفعال استخدمها الدكتور جعيط خطأ، كأن يكون الفعل لازما ويجعله متعديا، مثل «أثريت»، أو العكس: فعل متعد يجعله لازما مثل مَسَّ (ح2ص 264 وغيرها) وعَمَّ (ص316)، ولم يفهم إبراهيم عوض استعمال جعيط لكلمة «تؤرخة» عِوَض «التأريخ». وتوقف عوض عند قول جعيط، وهو يتحدث عن كتب السيرة النبوية، فقال عنها: «إنها تدلو من نفس الدلو» (ص27) وليس في العربية «دلا فلان من نفس الدلو»، إذ الفعل دلا يدلو/ أدلى يدلي/ دلّى يدلي دلوه في البئر للاستسقاء، أما «دلا من نفس الدلو»، فلا أدري كيف تكون، إذ الدلو لا يدلي من الدلو، بل يُدْلَى في البئر. ومن تلك الأخطاء المزعجة قوله: «إن الإنجيل ليس بالكتاب المنزل على شكيلة القرآن» (ص30 ثم316)، والعرب تقول: «على شاكلته» كما في قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته» (الإسراء: 84) لا على شكيلته.

ومن الأخطاء التي لا يمكن أن يقع فيها أستاذ جامعي قوله عن الرسول: «فكون أبوه مات وأمه حامل به يصعب قبوله» (ج2ص146)، وهو لا يعرف أنها «أبيه» لا «أبوه» لأنها مضاف إليه.

ويكرر «بقدر ما» في الجملة التالية: «بقدر ما كانت مكة ضيقة فضائيا بقدر ما اتسعت بكثرة وكثافة سكانها» (ج1 ص41 وج2 ص161 و213)، وهي لا تكرر في هذا التركيب، وهو ما لا يجهله الطالب المبتدئ فما بالك بالأستاذ الجامعي؟ وكذلك «كلما» لا تكرر في هذه الجملة: «كلما تقدم الزمن كلما تضخم دور الحديث في التشريع» (ج1 ص45)، وينقل تراكيب أجنبية إلى العربية فتكون مسخا مثل: «تزن بوزن كبير على المنطقة» (ج1 ص 27 وج2ص 162)، أي المسيحية في بلاد العرب، عِوَضَ أن يقول: «إن للمسيحية ثقلا كبيرا على المنطقة».

ومن الجمل الأجنبية قوله: «إن مفهوم الباركليتس كان لا بد من قبل منشغلا في ذهن النبي، كما انشغل في ذهن ماني قديما» (ص166). هل يقال بفكرة تنشغل في ذهن صاحبها؟

وعاب عليه الأستاذ عوض تسمية الإسلام بـ«دين التوحيدية»، واعتبر أن الألفاظ التالية «ميتانص» و(«إيثيقا» و«الأوامر الإيثيقية» من ألفاظ الشؤم وجالبة للنحس.

وعندما اعترض المشركون على اختيار الله سبحانه وتعالى للرسول بدلا من ﴿رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] قال بأنه عليه الصلاة والسلام: لم يكن شيئا اجتماعيا (ج2 ص208)، وقوله عن قصة الغرانيق: ومفادها بكلمة أن الشيطان حسب التقليد ألقى على لسان النبي آيتين في مدح آلهة قريش (ج2 ص272). والمقصود بـ«التقليد» روايات السيرة والحديث النبوي طبقا لرطانة ذيول الاستشراق، إذ هي ترجمة حرفية قميئة لمصطلح «tradition»، الذي يستخدمه المستشرقون بمعنى «السنّة» وما أشبه.

ومن كلامه الذي لا يفهم قوله: «هل يزن الوسط العائلي بوزنه في انبثاق شخصية عظماء الرجال أم يزن نقضا؟» (ج2 ص254). ولا يُحْسِن استعمال كلمة «بعض». يقول: «هم في حالة عداء مستمر بين بعضهم» (ج2ص 300) بدلا: بين بعضهم وبعض. وأخيرا، والقائمة طويلة، يجمع «نوا» على «نواتات» (ج2 ص213).

والعربية، فى نظر جعيط، فقيرة جدا في كل ما هو مصطلحات في الفلسفة والعلوم الإنسانية التي انتشرت في الغرب، لكثرة استعمالها، وكثرة استيعابها، ولم يتساءل: من المسؤول عن هذا الفقر: هل هي اللغة أم أصحابها؟ واللغة لا علاقة لها بهذا الفقر، والعجز فينا نحن.

ولمح جعيط (كما يقول الدكتور إبراهيم عوض) إلى أن كتابات أمثاله بالعربية عرضة لأن تكون مبهمة، وأن يسمها القراء بأنها أجنبية، إلا أنه يسارع مؤكدا أن ذلك ليس من العيب في شيء (ج1ص 8). وعقب عوض على هذا الكلام بقوله: طبعا أنت رجل لا تعرف العيب.

والتعثر والارتباك في التحرير والتعبير هو الأمر الغالب على كتاب «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة»، فلَيُّ عنق اللغة العربية أمر لا يهمه، وميله إلى كتابة قوالب من اللغة اليومية أو الفرنسية «ليس من العيب في شيء»، مثل: أكثر من اللازم، وقبل كل حساب، والقوعدة، وغيرها من التراكيب الهجينة التي تبين أن مستوى كاتبنا في اللغة العربية ضحل إلى حد بعيد.

وتناول الدكتور رضوان السيد مسألة فهم جعيط لآية سورة «النجم»، ومسألة عودة الضمير فيها على من يعود. قال الدكتور رضوان: ليس هناك إبهام في قوله عز وجل: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: 10] لمن يعرف اللغة العربية، فالضمير في «أوحى» وفي «عبده» يعود إلى الله الموحي، وليس إلى جبريل، بل الملك هو الواسطة. فإذا ذهب الكاتب بعد ذلك كله إلى أن القرآن يتجنب التعبيرات التوراتية، فماذا يقال عن عبارته هو من مثل

: «ولئن ينعت جبرائيل بشديد القوى، فهو منبثق عن الله، أو هـو الله في مظهـر قوتـه الخارجيـة» (ص64)، ومن مثل: «ولعل هذا التعليل يفسر غموض سورة «النجم»؛ لأن الذي تجلى فعلا هـو الله، وليس بالله، لأنه منفصل عن الذات الإلهية في هويتها الكاملة الصميمية، لكنه يبقى في العالم السماوي». وكان الأستاذ جعيط قد ذكر في المقدمة أنه تردد في الكتابة بالعربية لفقرها فيما يريد التعبير بها عنه من مفاهيم، وأنا أرى هنا أن الشكوى منه وليس من العربية، فليتك يا أستاذ كتبت بالفرنسية، فأرحت قراءك من هذه الصميمية (؟) غير الصميمة.

مسألة المفاهيم والمصطلحات

واهتم الدكتور العليبي بالمصطلحات والمفاهيم التي استعملها الأستاذ جعيط في غير محلها، وتساءل: ماذا يقصد هشام جعيط بكلمة «فضائي»، التي استعملها مرارا؟ فهو يقول: («الحرم والحرام الذي ينافي في المعجم القديم ما هو حل وحلال، وهو مفهوم قديم فضائي على الأغلب»، كما يتحدث عن «واقعية في الفضاء والزمان» وعن «اللانهائي واللافضائي الزمني». وهو يترجم بذلك حرفيا الكلمة الفرنسية «Espace» دون أن يتنبه إلى اختلاف الدلالات بين الكلمتين العربية والفرنسية. وكان حريا به، كما يرى العليبي، العودة إلى الفلاسفة العرب القدامى الذين شاع لديهم استعمال كلمة «المكان». من ذلك ما نجده على سبيل المثال في كتابي «عيون الحكمة» و«الشفاء» لابن سينا، وهي أكثر دقة في التعبير عما أراد التعبير عنه. ولا يقف جعيط عند حدود استعمال هذا المفهوم إذ نراه أحيانا أخرى يتحدث عما هو «هوائي» عند وصف جبريل مثلا.

ويقول عن الله: «الشخصية الإلهية المنزهة المتعالية» (ص19) ثم يقول بعد ذلك: «الكائن الحق المشخص هو الله». يقول العليبي: ولا شك أن السيد جعيط يدرك أوجه الاختلاف الكبرى بين ما هو «مشخص» وما هو «مفارق» وما هو «متعال»، فكيف يكون هذا وذاك في نفس الوقت؟

وقد رأينا سابقا كيف يخلط بين الديانة اليهودية والشعب الإسرائيلي، وتناسى أنه لا يوجد شعب بهذا الإسم إلا في مخيلة الصهاينة الذين استحوذوا على الأرض وطردوا الشعب الفلسطيني صاحب تلك الأرض.

أما بعض الألفاظ القرآنية التي أساء فهمها فقد تكفل بإيضاحها الدكتور رضوان السيد، ونعني بها لفظ «الأمين والأمي» في القرآن، فقد ذهب جعيط إلى أن المقصود بذلك العرب الذين لم يكن لهم كتاب سماوي مثل اليهود والنصارى. وهذا صحيح، ولكن رضوان السيد يقول له: إن اللفظ المذكور إذا كان في المفرد فهو يدل على الجهل بالقراءة والكتابة، وفي الحديث (والسيد جعيط لا يعترف بالأحاديث): «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

وأشار الأستاذ سمير ساسي إلى أن استغراب جعيط من اعتبار القرآن سن الأربعين سن الرشد أو «الأَشُدّ» ليس له سند علمي أو موضوعي، وقال :إن ما جاء في البحث عن معدل الأعمار زمن النبي، واعتبار أن سن الأربعين هو سن الشيخوخة لا يصمد أمام أدنى بحث أو تدقيق. واستشهد سمير ساسي بالبيت الشهير لزهير بن أبي سلمى الذي قال فيه: «ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأمِ».

الخلل الثاني الذي تفطن له هؤلاء الكتاب هو هذا التضارب في الأقوال في كتابه: «الوحي والقرآن والنبوة»، والتناقض بين ما يعده وما يكتبه فيما بعد. وقد ذكرنا نماذج من هذا التناقض في فقرة سابقة: «الشيء وضده». يقول فريد العليبي أستاذ الفلسفة: أنكر جعيط المعجزات مثل الإسراء والمعراج ، ثم ينقض دائما ما يقوله، فما يعطيه باليد اليمنى يأخذه باليد الأسرى. لنقرأ هذا المقطع من كتابه الذي يؤكد فيه المعجزات التي تصدى لنفيها سابقا: وتذكر لنا كتب التفسير أن محمدا كان يرى في اليقظة المشاهد أمام عينيه، وكأنها واقع حاضر مثل مشهد القدس وغير ذلك، ومثل الوقائع الحربية كبدر، حيث يشاهد الملائكة يقاتلون ولا يراها غيره: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: 9] يقول القرآن. كل هذا صحيح، وليس ببهتان أو كذب. يقول الأستاذ فريد: «فإذا كان جعيط يقر بأن محمدا ﷺ قد رأى القدس فعلا، وليس في المنام، وأن الملائكة حاربت إلى جانبه يوم بدر، فكيف يحق له بعد ذلك أن ينفي عن شخصية محمد (عليه الصلاة والسلام) اتصالها بالمعجزات؟

ويؤكد جعيط ،كما يقول العليبي، من ناحية أن النبي لم يكن يصبو إلى السياسة، ومن ناحية ثانية يشير إلى أنه خاض حروبا، وعقد تحالفات، وبنى دولة، بل إنه يرى أن هذه الأداة الدنيوية (يقصد الدولة) بقيت تشتغل (؟) بعده عبر إطفاء الردة، ثم انطلاق الفتوحات، فصارت الدولة الإمبراطورية بعد عشر سنوات من موت محمد ﷺ. أي إننا إزاء تأكيد الفكرة ونقيضها في نفس الوقت، غير أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ يعود جعيط من جديد، لكي ينسف هذه التأكيدات على الجانب السياسي في الصفحة (85) من كتابه: «الوحي والقرآن والنبوة»، إلى التشديد على نقيضها، فرفض الملأ المكي لمحمد (عليه الصلاة والسلام) لم يكن لأسباب سياسية، وإنما لأسباب دينية. يقول: إن الذي لقيه النبي من قومه ليس معارضة بالمعنى الحديث؛ لأنه لم يكن رجل سياسة، وإنما رفض وتعجيز ورمي بأمور مشينة، وحط من قيمة الوحي أو تكذيب.

والقول بأن لمحمد ﷺ هدفا سياسيا لا يحط من شأنه كما يعتقد، ولا يعني كذلك في رأي العليبي طمس الأبعاد الأخرى في شخصيته، وبالتالي الأهداف الدينية والأخلاقية وسواها. يقول ماكسيم رودنسون: ليس استنقاصا من قيمة محمد ﷺ عندما نرى فيه رجل سياسة، مضيفا قوله: كان محمد (عليه الصلاة والسلام) عبقرية دينية وشخصية سياسية كبيرة، وإنسانا مثلي ومثلك.

وذكّر الدكتور إبراهيم عوض بما قاله هشام جعيط من أن القرآن مطبوع بطابع عبقرية شخصية ملهمة في الفكر والتعبير، في المعاني الميتافيزيقية في قوة الإيحاء (ص25) يقول عوض: ولا أظن المعنى إلا واضحا، لا يحتاج أي تدخل مني لشرح مقصد الكاتب (يعني القرآن من وضع الرسول). ويزداد (كما يقول عوض) الأمر عجبا وغرابة حين نراه رغم ذلك يؤكد أنه من غير الممكن أن يكون القرآن قد تعرض لأي تغيير في نصوصه لما له من قداسة شديدة في نفوس المسلمين، ولأنه كان محفوظا في الصدور والطروس جميعا، ويردده الناس في كل صلاة، ويرجعون إليه دائما في تشريعاتهم، بحيث لا يمكن أن يعتريه أي تغيير، دون أن يثير ضجيجا وعجيجا، يهتز له المسلمون في كل مكان (ص22 ـ 23). عظيم، فما المشكلة إذن؟ وكيف يتسق هذا والقول بأن القرآن قد دخلته بعض الإضافات؟ يقول عوض: حسبما هو مخطط، فسوف يرد بعض القراء قائلين إن هشام جعيط قد بذل جهدا عظيما ورائعا في الدفاع عن صيانة القرآن من العبث والتحريف، فلا يعيبه أن يقال إنه قد أقحمت عليه جملة ليست منه لا تقدم ولا تؤخر، جملة صغيرة لا خطر من ورائها (يقصد قول جعيط: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أقحمت في الآية) وممن؟

من عثمان، ختن النبي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، بالإضافة إلى بعض الحالات المحتملة الأخرى التي سقط من القرآن فيها بعض العبارات، أو أضيفت إليه بعض العبارات الأخرى، أو كررت على سبيل الخطأ بعض الآيات أيضا، كما ذكر هو نفسه (نفس الموضع). وهنا الخطر كل الخطر، إذ يكفي أن نفتح الباب حتى لو كان مجرد مواربة، فالمهم أنه لم يعد محكم الإغلاق، بحيث يكون من السهل بعد هذا دفعه دفعة واحدة لكي ينفتح على مصراعيه، بخلاف ما لو ظل مغلقا بالمتاريس المحكمة التي لا تسمح لأحد أن يفتحه. نعم هذا هو المخطط.

وأشار الأستاذ سمير ساسي إلى وقوع جعيط في تناقضات صارخة وغير مقبولة مثل إقراره في بداية الكتاب بأن القرآن هو الذي أوجد التجريد المفاهيمي في اللغة العربية، ثم يعود فيقول في مواطن أخرى: إن اللغة العربية لا تعرف إلا الحسي.

عدم الالتزام بالمنهج المختار

ويجمع هؤلاء الكتاب على أن الدكتور جعيط لا يلتزم بالمنهج الذي يعلن عنه، وقد لاحظ الدكتور رضوان السيد أن مقدمة كتاب «الوحي والقرآن والنبوة» تتناقض مع منهج أو مناهج المؤلف في فصول كتابه، بل إنه قال فيها عدة أشياء متناقضة.

ومن أمثلة خروجه عن المنهج الذي يريد أن يسير حسبه، ثم يخالفه ما ذكره العليبي من أن الأستاذ جعيط امتدح المنهج الفينومولوجي، ولكنه لم يتقيد به، وكان وَعَدَ بالسير على منوال هذا المنهج. يقول العليبي: ما يريد السيد جعيط استبعاده هو «الظروف الخارجية» و«التفاصيل الدنيوية الفارغة» باعتبارها عائقا يحول دون فهم الإشكاليات التي ينصب عليها بحثه، والاستعاضة عن ذلك بالقرآن ذاته، أي بالنص الذي يمكن استنطاقه دون سواه، في سبيل الظفر بالحقيقة التي ندب السيد جعيط نفسه للتحصيل عليها. ولتوضيح توجهه المنهجي ينبئنا أنه يتوخى المقاربة الفينومولوجية تحديدا بقوله: «وليس لنا مع هذا أن نستسلم ونتخلى عن طريقتنا الفينومولوجية وإلا رددنا ما أوردته المصادر القديمة»، معتبرا ذلك هو الضمان الذي يكفل الإفلات من قبضة التأويلات التي لا علاقة لها بالعلم. فالسيد جعيط حريص على إثبات أنه لا يقدم لنا تأويلات وإنما حقائق لا تخالطها الريبة

بقوله: فهمنا لا ينحصر في المنهجية التاريخية بقدر ما يتجه إلى استقراء القرآن بمنهج ظاهري. كما يعطي نفسه للقراءة والفهم بدون تأويل أو إسقاط.

ومخالفته للمنهج الذي أراد الإلتزام به يذكر جعيط (كما يقول الدكتور إبراهيم عوض) في مفتتح الفصل الأول من «تاريخية الدعوة المحمدية» عن الروايات المتعلقة بالسيرة النبوية أنه «لا بد للمؤرخ من نقدها وفحصها بكل دقة، فلا يمكن تغليب رواية على رواية أخرى حسب الأهواء، أو لإثبات فكرة كما فعل كثير من المؤرخين المحدثين،

بل يجب على المؤرخ أن يتجنب تصديق المصادر بدون روية بقدر ما يتجنب الإجحاف في النقد والرفض بدون حجج، والمصادر خاضعة بالأساس للمنطق التاريخي»، فهل اتبع هذه النصيحة؟

يقول الدكتور إبراهيم عوض: «لنأخذ مثلا تشكيكه السخيف في قرآنية قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فى الآية 38 من سورة «الشورى» بشبهة أنه لا يناسب السياق الذى ورد فيه (ص22 – 23)، ومن ثم يزعم أن تلك العبارة هي مما أُقْحِم على القرآن فيها بعد عند كتابته للمرة الرسمية الثالثة فى عصر عثمان، ولم «يَبُحْ» بها النبي، حسب رطانة الدكتور جعيط، الذي لو كان لديه شيء من الحس السليم لفهم أنه بهذه الإمكانات اللغوية المتواضعة بل الوضيعة ما كان ينبغى له أن يتغشمر فى كلامه عن كتاب الله على هذا النحو الجاهل. وأحب أن أقول للقارئ إن ريجى بلاشير، المستشرق الفرنسى الذي أعمى الله بصره فى أخريات حياته مثلما أعمى قبلا بصيرته، كان من شِنْشِنَته الزعم بأن هذه الكلمة أو تلك العبارة لم تكن فى النص القرآني الأصلي، بل أُقْحِمت عليه فيها بعد، والمقصود من كلام جعيط عن آية الشورى، حسبما أشار هو نفسه عقيب ذلك، أن عثمان قد أضاف هذه العبارة من لدنه كى يضفى الشرعية على تبوُّئه الخلافة، وكأن الشورى تحتاج إلى تبرير، وهو ما يعنى أن الأصل في أمور الحكم حسبما قرره القرآن وطبقه الرسول هو الاستبداد وقفز كل طامح مغامر على كرسىّ السلطة عَنْوَةً ودون اعتبار أو انتظار لرأى الناس الذين سيحكمهم، فكان لزاما على عثمان أن يضيف إلى القرآن جملة تقول: إن الشورى يا مسلمون يا متخلفون هى أمر طيب، ومن ثم فلا وجه لاعتراضكم على الأسلوب الشُّورِىّ الذى وصلتُ به إلى الإمساك بمقاليد أموركم. أليس ذلك أمرا مضحكا؟ فهذا هو مستوى هذا اللوذعي في الفهم والتبرير وقراءة النصوص».

والآن ما هو تقييم هؤلاء الكتاب للسيرة النبوية التي حبرها جعيط؟

القيمة العلمية للسيرة عند جعيط حسب هؤلاء الكتاب

اهتم الدكتور عوض، كما سبق أن ذكرنا، بالأسلوب واللغة (وهو مدرس النقد الأدبي بجامعة عين شمس) فتوصل إلى أن الغالب على هذا الأسلوب هو الركاكة والاستعجام، ونتج عنه تفكك الفكر، وتناقض الكلام، وضعف المنهجية، واللف والدوران، والجهل بالمصادر اللازمة للموضوع، والعجز عن القراءة السليمة.

أما الأستاذ رضوان السيد فقد خالجه الكثير من الاندهاش والتعجب عندما تصفح الكتاب: «الوحي والقرآن والنبوة» ثم قرأه، فانتهت دهشته إلى خيبة أمل وإحباط، فقد كان ينتظر أن يمضي وراء ما جرى إنجازه في هذه الحقبة الحديثة. ذلك أن محمد حسين هيكل قرأ الرسول ﷺ باعتباره رجل دولة، وقرأه العقاد بطلا كارزمائيا (على نهج توماس كارلايل في كتابه: «الأبطال»)، وفهمه عبد الرحمن الشرقاوي باعتباره قائد حرب تحرير شعبية، وقرأه محمد الغزالي ومحمد سعيد رمضان البوطي باعتباره قدوة ونموذجا وشارعا... إلخ ، ولكن الدكتور السيد لم يجد في الكتاب المشار إليه ما كان منتظرا من الأستاذ جعيط. ورأى رضوان السيد في كتاب جعيط: «الوحي والقرآن والنبوة» مجموعة من الخاطرات والأفكار والرؤى المصوغة على عجل، والتي يسودها التكرار والتقطع والتعجل والزهد والتزهيد في فهم المتلقين من المسلمين الأوائل للرسول والرسالة على حد سواء. وفي رأيه أن ما قام به الأستاذ جعيط هو تسجيل مجموعة من الخواطر الطريفة أحيانا، لكن غير المنتظمة في غالب الأحيان، ولذا لا يمكن اعتبار الكتيب (139ص) دراسة علمية، كما يريد جعيط أن يسميها.

واستغرب «تفهم» جعيط للسيرة النبوية و«تفهمه» للقرآن، فهو يريد من جهة أن يصغي لأفهام المعاصرين للنبي ﷺ لشخصه ورسالته، وهو يريد من جهة أخرى أن يكتب سيرة للنبي ﷺ من خلال القرآن وحده. والقرآن ليس كالإنجيل أو التوراة، فالتوراة قصص شعب، والإنجيل سيرة لحياة المسيح وتجربته، أما القرآن فرؤيته أنه الرسالة الأخيرة إلى البشر في هذا العالم، ولذلك لا يظهر الرسول ﷺ بفرديته كثيرا فيه، أو أنه على الرغم من ظهور معالم رئيسية من سيرته فيه لا يمكن كتابة سيرة له استنادا إلى القرآن، بل كل ما يمكن فعله في قراءة بنيوية للنص القرآني فهم معنى النبوة فيه.

وفي رأي العليبي أن السيد جعيط لم يقدم لنا في واقع الأمر كتابا في العلم (...)، فمؤلفه أقرب ما يكون إلى هرمونوطيقا المقدس، حيث ينصب البحث على تأويل الرموز التي يتضمنها النص الديني، مضافا إلى ذلك محاولة تسويق تلك التأويلات إلى جمهور القراء عبر إضفاء مسحة علمية عليها. وفي رأيه أن السيد جعيط كان ضحية التلعثم في مؤلفه جراء الاضطراب الذي شاب كلامه في الحقل المنهجي. وأكد الأستاذ العليبي أن عمل جعيط كان فعلا متناقضا ومتشعب الأطوار إلى أبعد الحدود، وخطابه مشوب بالتردد والتلعثم، تخترقه التناقضات من كل جانب، فصاحبه يؤكد تارة هذه الأطروحة، وطورا ينفيها، ويتمسك أحيانا بمواقف إيمانية، وأحيانا أخرى يشهر علمويته. وبالتالي فكتاب جعيط مشوب بالتردد والتلعثم لا يكاد يضع قدميه على أرض حتى يغادرها، والسيد جعيط يربط في موضع، ويحل في موضع آخر بحسب تعبير الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل.

وبالنسبة لسمير ساسي فما ورد في كتاب جعيط ليس جديدا بالمرة، بل هو منتشر في كتب المستشرقين، وحتى في مواقع الإنترنت التابعة للأقليات المسيحية في العالم الإسلامي، كما أنه لم يلتزم الصرامة العلمية التي وعد بها في كتابه، فأغلب استنتاجاته لم تكن مدعمة أو مبرهنا عليها، لا بالوثائق كما قال، ولا بالبراهين العقلية السليمة.

وكتاب جعيط عن الرسول في مكة (حسب سامي براهم) امتداد للأفق النظري الذي يتحرك فيه الاستشراق المعاصر رغم نقده الصريح، والتنديد بترهات الكثير من المستشرقين، لكن تبقى المقاربة الوضعية قاسما مشتركا بين أعمال الدكتور جعيط وأعمال المستشرقين. وقال براهم: لا نجد فيما ورد في كتاب الدكتور جعيط خروجا عن السياق النظري والمفهومي والمنهجي لما جاء في بحوث المستشرق الألماني تيودور نولدكه، فقد جاء في كتاب «تاريخ القرآن» للمستشرق المذكور: «الإسلام في جوهره يقتفي آثار المسيحية، أو بعبارة أخرى أن الإسلام هو الصيغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها». وقال نولدكه : إن محمدا ﷺ حمل طويلا في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره حتى أجبره الصوت الداخلي على أن يبرز لبني قومه.

وأكد الدكتور براهم أن الصدور عن مسلمات العقل الوضعي في مبحث تاريخ الأديان الكتابية، ولا سيما الإسلام، يوهم أن الانطلاق من الإقرار بألوهية النص المؤسس يستحيل معه إنتاج معرفة علمية موضوعية عن الدين، وهو حكم تفنده الحركة العلمية التي نشأت حول النص، تستكشف بنيته اللغوية والحجاجية والمفهومية، وتستفهم معانيه ودلالاته، لتنتهي بعيدا عن سياق الحجاج الديني العقائدي إلى فرادته وانسجامه الداخلي. وكان جعيط قد وضع البحث الذي يروم الموضوعية العلمية بين خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الإقرار بألوهية القرآن ونبوة محمد ﷺ، وتنتفي بذلك مبررات البحث العلمي، ويتوقف الباحث لصالح العقيدة الدينية، أو الإقرار بعلمانية الظاهرة القرآنية والنبوية ونشوئهما ضمن الشروط التاريخية الموضوعية. وهذه المصادرة حسب سامي براهم تناقض مبدأ الموضوعية العلمية؛لأنها تستبق مسار البحث العلمي، وتفترض نتائجه مسبقا، وقد تدفع إلى التعسف على المادة التاريخية وتوجيهها وافتعالها أحيانا، عبر الانتقاء أو التضخيم، أو توهم التناص بين النصوص وتناسل الخطاب وهجرة المعرفة.

ولا شك أن مثل هذه المباحث التي رام الأستاذ جعيط البحث فيها تستدعي معرفة جيدة باللغة العربية. وقد أشار الأستاذ براهم بصورة غير مباشرة إلى أن جعيط غير مؤهل للقيام بها، بعدما تبين له أن الكثير من الاستنتاجات التي توصل إليها جعيط بنيت على معلومات ناقصة،؛ لأن مبحث النص يتطلّب معرفة لغوية تعصمه من الوقوع في زلات وهنات بدأت مع دراسات المستشرقين والتقطها الباحثون المعاصرون على اعتبار أن المقاربة الوضعية بنسختها الإستشر-اقية هي الصراط المستقيم لإنتاج المعارف العلمية.

الخاتمة

هذا رأي ثلة من الباحثين من أهل الاختصاص من تونس ومصر ولبنان، وقد تكررت في قراءاتهم ألفاظ مثل: التردد، والتناقض، والتلعثم، والتكرار، والتضارب، والتقطع، والأحكام السريعة، والاستخفاف، والهجوم، والجهل باللغة، وغيرها. وكلها توحي بأن مشروع كتابة السيرة الذي أراد الأستاذ جعيط النهوض به كان فاشلا، ولم نجد واحدا من هؤلاء الباحثين قال : إن لهذا العمل في السيرة النبوية فائدة تذكر، فكلهم مجمعون على ذكر النقائص، ليس حبا في عرض النقائص، ولكن قراءتهم أفضت إلى هذه الأحكام التي لا بد من إبدائها. وجلهم عبر عن دهشته وخيبة أمله وإحباطه بعد الإنتهاء من القراءة، وكانوا ينتظرون من مؤرخ له تجربة طويلة في البحث والدرس أن يقدم إضافة جديدة في السيرة النبوية تضاف إلى هذه الكتب التي ألفت حول سيرة الرسول منذ عروة ابن الزبير والزهري وابن إسحاق حتى اليوم، ولكنهم وجدوا سيرة الرسول كما كتبها المستشرقون، وعلى رأسهم نولدكه، وغيره من غلاة المستشرقين الحاقدين على الإسلام ونبيه ﷺ.

وإذا كان أغلب ما جاء في هذه السيرة مأخوذا من مزابل المستشرقين، ويبدو الرسول كأنه قس من قسوس الشام، فإن الأسلوب والمنهج لا يخلوان من تعثر وارتباك وأخطاء في اللغة، وكان جعيط لا يرى بأسا من الوقوع في هذه الأخطاء، مثله مثل ذلك الزعيم العربي (رحمه الله) الذي يعتبر من العيب أن يخطئ الإنسان في نحو اللغة الفرنسية وصرفها، أما الخطأ في اللغة العربية، وفي قراءة بعض الآيات القرآنية فيمكن قبوله.

كتاب «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة»، وكذا «الوحي والقرآن والنبوة»، رغم تناولهما لموضوع هام في المنظومة الإسلامية فإنهما قوبلا بالصمت، فلم يسجل لهما صدى يذكر لا في الشارع التونسي، ولا بين النخبة التونسية، كما أن وسائل الإعلام لم تهتم بهما، رغم الدعاية التي قام بها صاحب الكتابين: إنْ في بعض الكليات أو في بعض دور الثقافة، وذلك بحضور الطلبة والأساتذة، وقد استمعوا إلى عرضٍ قدّمه المؤلف عن السيرة النبوية، ثم خرج الحاضرون، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وقد أشرنا أعلاه إلى أن جعيط رفض مناقشة ما جاء في عرضه عن السيرة النبوية، إلا أن ما ورد في هذين الكتابين تلقفته واحتفت به بعض المواقع التنصيرية في الإنترنت، وخاصة إسم الرسول وما قاله جعيط وأكده من أن إسم النبي محمد ﷺ هو «قُثَم». وفي الحقيقة أكد ما قاله المستشرقون، وهل يخرج عن سربهم؟ فقد عبدوا له الطريق، وما عليه إلا أن يسير فيه، ولا بأس أن يحسّنه، ويدعمه بالأخبار الموضوعة والمنحولة. غريب أمر هذا الرجل: من جهة يرفض الأحاديث والأخبار الصحيحة المسندة، ومن جهة ثانية يقبل خبرا لا أساس له من الصحة، ومعروف أنه يقبله لأنه يخدم المنهج أو الخط الذي آلى على تفسه السير فيه.

وبعد فإن مراجعة السيرة النبوية تعني، من جملة ما تعني، حذف القصص والخرافات التي أدخلت على السيرة في عصر الانحطاط، وتقديمها للقارئ بصورة منظمة ودقيقة، وتتضح من خلالها صورة الرسول مشرقة وجلية. فهل كان عمل جعيط كذلك بعد نقده لكتب السيرة، وبعد اعتماده على مناهج جديدة في دراسة التاريخ؟

إن المطلع على هذا الذي سماه بالسيرة يجده شلوا ممزقا، فكل ما كتبه جاء مرتبكا، ومترددا بين «لا» و«نعم» أو بين ما يسميه: «المعطى الوضعي أو العلماني» وبين «المعطى الإيماني» إلى درجة أن القارئ يحتار ويتوقف، ولعل هذا ما قصده الكاتب. أعني بث البلبلة والحيرة في النفوس كما ألمعنا سابقا.

كنا ننتظر من المؤرخ جعيط أن يقدم لنا سيرة مناسبة للعصر، هذا العصر الذي ذاق فيه المسلمون الهوان، وتكون هذه السيرة دافعا لليقظة من الأخطار التي تحدق بنا من كل جانب، وإذا به يعيد على مسامعنا ما قاله المستشرقون في القرن التاسع عشر، ويشنف آذاننا بالمناهج المعتمدة في البحث مثل الأنتروبولوجيا والفيلولوجيا والكذبلوجيا والفينمولوجيا والخبطولوجيا، وغيرها مما يطنطن به في طول الكتاب وعرضه.

■ ملحق

ومما رأيته في كتابه «الفتنة» حديثه غير العلمي عن علاقة الرسول باليهود في المدينة، فقد وقف إلى جانبهم، وكأنه مكلف بالدفاع عنهم، وأخاف أن يعيد هذا الود والتقدير لليهود في الجزء الخاص بسيرة النبي في المدينة، ولذلك خصصت في آخر هذا الكتاب الفقرة التالية:

الرسول واليهود في المدينة

تحدث الأستاذ جعيط في كتابه: «الفتنة جدلية الدين والسياسة» عن علاقة الرسول بيهود المدينة، والكتاب مؤلف بالفرنسية، كما هو معروف، أي يخاطب قراء الغرب، ويوضح لهم في أوائل كتابه، كيف كان الرسول يتعامل مع القبائل اليهودية، وماذا جرى لهم معه.

قرأت ما كتب عن هذه العلاقة المتوترة بين يهود المدينة والنبي محمد ﷺ، واندهشت لأن الرجل مؤرخ، ومن الطراز الرفيع، والمؤرخ من عادته أن يبحث عن الأسباب والعلل الكامنة وراء الأحداث والوقائع. ألم يقل ابن خلدون في المقدمة: «وفي باطنه (أي التاريخ) نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق».

وبدون الدخول في التفاصيل نشير إلى أن الرسول لما حل بالمدينة كان ينتظر أن يقف اليهود إلى جانبه لأنهم أهل ديانة سماوية مثله، ولعلهم أيضا يدخلون في دين الإسلام، ولما عرض عليهم هذا الأمر تمسكوا بديانتهم، ولم يعتنق الإسلام منهم إلا القليل، فتركهم وشأنهم. ورأى ﷺ أن ينظم العلاقة بيت المسلمين وغيرهم على أسس صحيحة، فكان أن اتفق مع اليهود، وكتب هذا الاتفاق في وثيقة يذكر فيها ما لليهود من حقوق، وما عليهم من واجبات. وتتمثل الواجبات في الدفاع عن المدينة إن هجم عليها المعتدون، وكان الأمر كذلك. ولكن بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر تغير موقف اليهود من الرسول، وأصبحوا يتذمرون من وجوده في المدينة،

وتحول هذا التذمر إلى عداوة، ثم إلى اعتداء على بعض المسلمين، ثم الوقوف مع المناوئين للرسول، فجمعوا الجموع، وألبوهم على المسلمين، فما كان من المسلمين إلا الدفاع عن أنفسهم ووجودهم بالمدينة، والدفاع أيضا عن العقيدة التي يتهددها الأعداء من كل جانب.

فما كان من الرسول إلا أن قاومهم، وشردهم من المدينة؛ لأنهم كانوا بؤرة شغب وفتنة في مجتمع يريد الحفاظ على أمنه ووجوده واستقراره، فماذا قال المؤرخ هشام جعيط؟ قال: إن اليهود كانوا هدفا للقمع أو الطرد، وفي كل أزمة حربية (بدر، أحد، الخندق، الحديبية) يدفع اليهود ثمنها الباهظ، ليس فقط لأنهم الشاهد المنكر للدين الجديد الحي، بل أيضا لكي يزود بالغنائم والأنفال أولئك الذين يتبعون النبي ﷺ أو السلطة ذاتها... من هنا كان طرد بني قينقاع، ومن بعدهم طرد بني النضير، ثم من بعدهم أيضا مجزرة بني قريظة، وأخيرا الاستيلاء على خيبر.

حصر الأسباب في الحاجة إلى الأموال، والتوجه إلى اليهود لمحاربتهم، والاستيلاء على أموالهم أمر يفتقد إلى الحياد والموضوعية، والقارئ الغربي لا مفر له من التعاطف مع هؤلاء الذين ظلمهم الرسول، ويقتنع بأن سلوك المسلمين مع اليهود كان بربريا ووحشيا. هذا هو الانطباع الذي يخرج به كل قارئ بعد تأمله في الفقرة المذكورة.

كان على المؤرخ جعيط أن يضع مسألة العلاقة المتوترة بين المسلمين واليهود في إطارها الصحيح، لا أن يذكر النتائج، ويتغاضى عن الأسباب التي أدت باليهود في المدينة إلى هذه الحالة، أما أن يذكر مسألة الغنائم، وحاجة المسلمين إليها، ويصورهم كما صورهم المستشرقون على أنهم قطاع طرق، فهذا لا يليق بمؤرخ له مكانته. إن الغنائم هي نتيجة للحرب وليست سببا لها.

ولا شك أن القارئ الغربي، وحتى القارئ المسلم الذي لم يطلع على السيرة النبوية، يرى من خلال ما قاله جعيط أن اليهود في المدينة، ثم في خيبر، يعيشون في مساكنهم مطمئنين آمنين، فهجم عليهم الرسول، دون سابق إنذار، واستولي على أموالهم، وطردهم من المدينة بعد أن قتل البعض منهم، هكذا بكل بساطة، ودون أن يقترفوا شيئا ضد المسلمين، فكلما كان في حاجة إلى المال توجه إلى اليهود، وافتكّ منهم أملاكهم بالقوة. هل هذا يعقل؟

هذا ما يريد الكاتب أن يضعه في ذهن القارئ الغربي، الذي لا يعرف ملابسات الظروف، والعلاقات بين الرسول واليهود، منذ دخل المدينة، ولا يعرف كذلك أن ما ذكره الأستاذ جعيط هو نتائج لملابسات وعلاقات متوترة بين اليهود والمسلمين. ولكن الكاتب يتغاضى عن الأسباب التي أدت إلى «مصادرة الأملاك والأموال اليهودية لبني النضير»، وكان ذلك في المرحلة التي سماها بين بدر والخندق، أما بعد الخندق فقد أصبحت دولة الرسول «دولة الغنائم والقتال» كما قال.

وفي رأيه أن هذه الدولة لجأت إلى شدة وقسوة في الحروب لم تستعمل من قبل، ويأتي بمثال لهذه الشدة والصرامة حادثة المجزرة الباردة لبني قريظة، فهذا التصرف (في رأيه) لم يظهر له مثيل إطلاقا في الجزيرة العربية، وهو عنف مشتق من ممارسات الشرق العتيق، ذبح الرجال كافة، استرقاق الأطفال والنساء، إذ لم يكن للعنف البدوي هذا الطابع النسقي، هذا الحسم والعزم.

هكذا، وبدون أن يمس بنو قريظة المسلمين بأذى، وبدون سابق إعلام، هجم الرسول وأصحابه على بني قريظة، وأخذ يذبح الرجال، ويسبي النساء والأطفال. مساكين يهود بني قريظة:، لم يرتكبوا ذنبا، ومع ذلك وقع تقتيلهم. إنهم مظلومون، وهذا الكاتب العربي جاء لينصف اليهود من بني قريظة بعد قرون وقرون.

لم يتعرض المؤرخ، ولو بالإشارة، إلى ما قام به اليهود من مكر وخديعة، ولم يتحدث عن خيانتهم للمواثيق، ونقضهم للعهود. ونقض العهود، في حد ذاته، هو إعلان حرب على الرسول،. وما زال نقض العهود والمعاهدات في العلاقات الدولية اليوم كذلك، ولا يدري مؤلف «الفتنة الكبرى»، أو لعله يدري، أن اليهود كانوا جواسيس لمشركي قريش، ولم يشر إلى مشاركتهم في الحرب ضد المسلمين، وغير ذلك من المواقف التي لا يمكن أن تقابل إلا بالشدة، حتى يحافظ المسلمون على وجودهم وعقيدتهم؛ لأن القضية أن يكون المسلمون في المدينة أو يقع القضاء عليهم. ولأن اليهود اختاروا المواجهة منذ البداية، وفضلوا المواجهة على العيش بسلام، فكان جزاؤهم ما كان.

كان من الحكمة أن تذكر الأسباب العميقة لهذا الصراع بين الرسول واليهود، ولكن الكاتب قفز إلى سبب لم نكن نتصوره بالمرة، وهو رغبة المسلمين في الحصول على المال، والتعدي على أرواح الناس وأرزاقهم بالباطل. هذا لا يعقل من باحث جامعي.

ذكرنا هذا تمهيدا لما سيقوله عن سيرة الرسول في المدينة، واعتمادا على ما كتبه عن الرسول في مكة. فسيرة الرسول في القسم الثاني الذي سيصدره هل ستخرج عن هذا المنوال؟ إن سار على خطى المنهج الاستشراقي فسيقول لنا : إن الرسول أخذ الكثير عن اليهود، أخذ عنهم الصلاة الرباعية كما قال بروكلمان، وأخذ عنهم قصص الأنبياء، وقد ساعده في جمع هذه القصص أبو بكر الصديق، ولا يستبعد في رأيه تردد الرسول على بيت المدراس اليهودي لأخذ الكثير من التراث اليهودي وتضمينه في القرآن، لأن المنهج التاريخي يقتضي ذلك.

أما الغزوات والسرايا فهي مواصلة للغارات التي كانت تقع بين القبائل في الجزيرة، إلا أن الرسول حول أصحابه إلى قطاع طرق يعترضون قوافل التجارة الآتية من الشام والعائدة إلى مكة، وكانت تمر بالقرب من المدينة، فكان الرسول وصحبه يغيرون على هذه القوافل، ويفتكّون ما بها من متاع وأموال. فهل سيشير الأستاذ جعيط إلى أن الرسول كان في حرب مفتوحة مع قريش، التي استولت على أموال المهاجرين ظلما وعدوانا؟

ويثير مسألة تعدد زوجات الرسول في المدينة، فيذكر حسب المعطى العلماني أو الموضوعي أن النبي كان ميالا إلى المرأة، وأنه شهواني، ولن يقول للمستشرقين: لماذا لم تذكروا الأنبياء السابقين الذي كانت تحت سقف بيوتهم العشرات بل المئات من النساء والجواري؟

فإذا عاد إلى مثل هذه الترهات، والرجل في الخامسة والسبعين من عمره، فسنعدّ لكتابه عن الرسول في المدينة صاعقة أخرى لا تبقي ولا تذر، سننسفها نسفا، وسأقوم أنا أو غيري بنسفها، كما وقع نسف الكتابين اللذين تلقاهما المسيحيون بالأحضان. وكيف لا يستقبلونها بالترحاب والقبول، والرجل قدم خدمة مجانية، من حيث لا يتوقعون؟

فوالهفي على شيخنا جعيط، غفر الله له، الذي تعلمنا على يديه أصول الفقه، وكان يقول لنا في أثناء الدرس: إن ابني يستعد للحصول على الدكتوراه في التاريخ، ولم نكن ندري أنه سيتناول سيرة الرسول محمد ﷺ بهذه الطريقة الملتوية، وبهذا المنهج الاستشراقي الغريب علينا وعلى والده. ترى لو طالع والده ما كتب ابنه الفخور به، فماذا يقول عندما يرى أن قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أقحمهاعثمان بن عفان في آية «الشورى» ليبرر وصوله إلى الخلافة عن طريق الشورى؟ سيرفع يديه ويقول بصوت عال كعادته: ما هذا؟ ثم يرى بعد ذلك أن إسم النبي في الأصل هو «قثم»، وليس محمدا ﷺ، لا شك أنه سيمزق الكتاب، ويرمي به في سلة المهملات، فقد كان غفر الله له عميق الإيمان بالله ورسوله وبالدين القويم، وهذا ما غرسه في نفوسنا، بالإضافة إلى امتلاكه لغة عربية متينة، وفهما عميقا لكتاب الله، وما ورد فيه من أحكام شرعية تبلغ المئات.

والحمد لله أولا وآخرا

17 شوال 1431

22 سبتمبر 2010

فهرس الكتاب

فهرس المحتوى